النوم عند قدمي الجبل

النوم عند قدمي الجبل

(قصص)

حمّور زيادة

طبعة دار العين / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

صورة الغلاف تصوير: خالد عوض

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٩١٥٩ /٢٠١٩
I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 499 – 8

النوم عند قدمي الجبل

قصص

حمّور زيادة

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

زيادة، حمور

النوم عند قدمي الجبل: قصص/ حمور زيادة.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٨ ٤٩٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣,٠١

رقم الإيداع/ ١٩١٥٩/ ٢٠١٩

إلى هدى.. لأن ابتسامتها أحلى شيء في الحياة.

النوم عند قدمي الجبل

كل النـاس كانت تعلـم أن **مزمل النور** سـيموت يوم يكمـل عامـه العشرين.

منذ شبَّ **مزمل** وهو يسمع هذه النبوءة. النسوة، اللائي يزرن أمَّه، يربتن على رأسه في حنو ويهمسن:

- يا مسكين. تموت صبي. الدنيا خربانة.

الصبية، الذين يخرج معهم لرعي الغنم، يتقافزون أمامه ويُخرجون ألسنتهم له، يهتفون:

- ود الموت.. ود الموت.

التلاميذ، الذين يعودون من المدرسة -أعلى القرية- ظهرًا يمرُّون أمام بيتهم وينادون:

– الموت الموت يا **مزمل**.. بكرة تموت يا **مزمل!**

الكبار، الجالسون أمام دكان **عيسى فقيري**، يرمقونه حين يدخل لشراء حلوى، يغمغمون:

– دنيا ما فيها عمار. الله يرحمه.

شيخ المسجد، إذا رآه يتوضأ في باحة الجامع العتيق، يقول له:

– الله يصبّر والديك يا **مزمل**. برَّهما ما استطعت.

السيارات، التي تمر قرب القرية، يشير راكبوها إلى البيوت المتناثرة ويقولون:

– هذه قرية **مزمل** الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

والدته، **سكينة النصري**، رفضت أن يلتحق بالمدرسة. قالت لزوجها وهي تحتوي رأس **مزمل** في حضنها:

– ولدي لا يفارقني ليضيع نهاره في المدارس. الولد عمره قصير. يضيع في زرع وحصد؟

والده، **النور حسين**، ما كان متحمسًا لإلحاقه بالمدرسة. لم يجادلها واكتفى بهزِّ رأسه مسلمًا. فكان **مزمل** يقضي نهاره في صحبة والدته في المطبخ، أو يلعب

وحيدًا عند المزيرة. حتى إذا دوى صوت جرس المدرسة من مكانها المرتفع يعلن انتهاء اليوم الدراسي، يسرع **مزمل** ليستأذن والدته في الخروج. كل مرة تنظر إليه وفي عينيها قلق، ثم تأذن له. وفي مرات يكون عندها زائرات فيشجعنها في حماس:

– العمر واحد يا **سكينة**. خليه يخرج لمن في سنه.

أمه ما كانت تقلق غير من أن العمر واحد. و**مزمل** وحيدها قصير عمره. **مزمل النور** سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

يجري **مزمل** وجلبابه القصير يرفرف على ساقيه النحيلتين ليقذف نفسه إلى الشارع؛ فيتلقاه التلاميذ منادين:

– الموت الموت يا **مزمل**.. بكرة تموت يا **مزمل!**

يخرج إليهم **عيسى فقيري** من دكانه المقابل ويصرخ بهم:

– يا ولد! عديم تربية. امشِ يا ولد.

فيضحك التلاميذ ويتشتتون في طريق القرية الواسع وهم يضحكون، ويصدرون أصواتًا كأنهم يقودون سيارات.

يجري **مزمل** خلفهم وفي عينيه دمع يغالبه، فقد تعلم ألا يبكي إذا عابثوه. دموعه تزيدهم عبثًا به. يلحق بجماعةٍ منهم عند الجامع العتيق. كفُّوا عن الركض ومشوا متكاسلين تحت شمس الظهيرة الحارقة. يرتدون سراويل

قصيرة زرقاء، وقمصانًا كان ينبغي أن تكون بيضاء، لكن القذارة غطَّتها. يلاحظونه يقترب فينظرون إليه. يقف منهم على مسافة حذرة، ويسأل في تردد:

- ألعب معاكم؟

ربما يوافقون مرات، وربما يمدُّون ألسنتهم له مراتٍ أخرى ويقولون له:

- ارجع لأمك!

وفي أحيان قليلة يغريهم بنيانه الضعيف فيهجمون عليه فجأةً ليدفنوا رأسه في الرمال، ويحثوا عليه منها، ويركبوا على ظهره، ثم يعدون مبتعدين وضحكاتهم المنتصرة تصفعه.

والده، ذات مغرب، نظر إليه في مجلسه صامتًا. راقبه طويلا وهو يشرب الشاي باللبن ويأكل البسكويت. كانوا في مجلسهم اليومي بحوش البيت. قال **النور حسين** ببطء:

- يا **سكينة**، الولد لازم له شيء يفعله غير البقاء في حضنك.

كانت تضع أمامه المزيد من البسكويت حين أفزعها **النور** بقوله. التفتت إلى زوجها وقالت:

- الولد عمره قصير في كتاب الله! تحرمني منه مرتين؟

– بلا شغل الولد يموت مرتين. العاطل مثل الميت يا **سكينة**. شوفي جسمه كيف نحل.

– عودُه عود أخوالي. لا يحملون اللحم إلا بعد الثلاثين.

هزَّ **النور** رأسه رافضًا التبريرات.

– الولد مثل عود القش. الولد لازم له شغل. شيء يفتح نفسه للأكل ويملأ جسمه بالعضلات.

– ولدي ما بيمشي يرعى الغنم تاني مع الأولاد يا حاج.

– الولد كبر على رعي الغنم. كم عمره؟ اثنا عشر أو ثلاثة عشر؟

تحاول **سكينة** أن تحسب على أصابعها، وترفع بصرها إلى السماء مغمغمة:

– ولدته في سنة عرس أحمد أخوي. الحساب مكتوب في ورقة في الدولاب.

يقول **مزمل** في خفوت:

– أحد عشر.

– تبارك الله. الولد نبيه يا **سكينة**. أنتِ القلبك مقطوع خوفًا عليه ما تعرفي عمره وهو يعرف. لازم نشوف له شغل.

تعرف **سكينة** زوجها إذا صمم على أمر. تفكر قليلًا ثم تقول:

– **عيسى فقيري** يشغله معه في الدكان.

يضحك **النور**. ينزل قدميه من على السرير باحثًا عن حذائه.

– تريدين له شغل تحت عينك. خير إن شاء الله. أقول لـ **عيسى** في صلاة العشاء.

– شرطي للشغل، يا دكان **عيسى** يا ولدي في حضني لا يفوتني.

عيسى فقيري لا يرفض. يقول لـ **نور**:

– الولد ولدي مثلما هو ولدك.

ومن غده، بدأ **مزمل** العمل في الدكان.

الآن صار التلاميذ العائدين من المدرسة –أعلى القرية– ظهرًا يقفون أمام الدكان وينادون:

– الموت الموت يا **مزمل**.. بكرة تموت يا **مزمل!**

والكبار، الجالسون أمام الدكان، يرمقونه كلما انقطع حديثهم بضحكاتٍ صاخبة واستغفارٍ يتبادلونه عقب كل حكاية يقولونها، ويغمغمون:

– دنيا ما فيها عمار. الله يرحمه.

والنسوة، اللائي يقصدن الدكان للشراء، يربتن على رأسه في حنو ويهمسن:

– يا مسكين. تموت صبي. الدنيا خربانة.

فيزداد **مزمل** نحولًا، وتبرز في وجهه الجُمجميِّ عيناه بحزنٍ مكتوم كأنه أم موسى عائدة من اليم.

وأمه تقف على باب البيت طوال النهار ترمي ببصرها داخل الدكان تتحين منه نظرة، وتقول في نفسها:

– ما زال نحوله في حاله. قلت لحاج **النور** إنه مثل أخوالي. نحيف لن يحمل اللحم قبل الثلاثين.

ثم تذكر النبوءة، وأنه يموت يوم يكمل عامه العشرين، فيرجف قلبها وتتطاول أكثر لتراه.

السنة، التي وُلِد فيها **مزمل**، وتزوج فيها خاله **أحمد**، كانت سنة خير. فاض النيل وامتلأت الجروف بالخضار. شيخ المسجد اقترح على الناس شكر نعمة الله بعمل كرامة ضخمة. يذبحون ثلاثة ثيران وجمل.

اعترض بعضهم على فداحة العدد.

– من يأكل كل هذا؟

لكن شيخ المسجد **عبد القادر** قال:

– الله يبعث أهل اللقمة.

وفي ليلة الكرامة، ولدت **سكينة** مولودها الذي طلبته زمانًا من أولياء الله. وكانت كلما رجعت من شيخٍ أو ضريح تنتظر علامة نجاح مسعاها بلا جدوى. حتى كان حين زارت ضريح الشيخ **أبو عاقلة**. ليلتها، رأت في المنام من يقول لها:

– الولد الذي تلديه تسمّيه **مزمل!**

هبَّت من نومها مستبشرةً ونادت زوجها النائم على سرير قريب. أجابها شخيره. كرَّرت النداء حتى استيقظ. قالت له:

– البشارة جات!

النور كان مُشوَّشًا بين الحلم الذي كان يعيشه واليقظة المفاجئة بخبرٍ مبتور. كرَّر محاولًا الفهم:

– البشارة جات؟

– المنادي أتاني في المنام. بشَّرني بـ **مزمل**.

هبَّ **النور** مرتبكًا. هتف:

– ولد؟

– وأسميه **مزمل**.

نزل عن سريره وقفز فوق سريرها حتى ناء بهما. رفع قميصه لتصل يده إلى سرواله وهو يقول:

– يا مسهل! يا مسهل!

وسهَّل الله في ليلة الكرامة.

وُلِد **مزمل** بعد حمل خفيف كأنه الحلم، ونزل مسرعًا من بطن أمه بين وضع السكين على رقبة ثور وذبحه.

زغردت النساء فضجت بأصواتهن القرية. وسأل الرجال في مجلسهم بباحة الجامع، منتظرين اللحم والأرز، عن سر الزغاريد. سريعًا ما أتاهم الخبر. **سكينة النصري**، زوجة **النور حسين**، أنجبت ولدًا.

كان الحضور كثيفًا. فكما تيقن شيخ المسجد **عبد القادر** بعث الله أهل اللقمة. وقف بالقرية ليلتها موكب لخليفة الشيخ **أبو عاقلة** كان في طريقه إلى المدينة. كان يسافر في أربعين من أتباعه ومجاذيبه؛ فنزلوا بالجامع العتيق، وتسامع بهم أهل القرى المحيطة فأقبلوا جماعاتٍ حتى ضاقت بهم باحة الجامع.

النور حسين جاء مهرولًا يحمل وليده وهو بعد قطعة لحم. وضعه بين يدي خليفة الشيخ **أبو عاقلة** وهتف:

– أقسم بالطلاق لا يُحنِّكه ويُكبِّر في أذنه غيرك يا مولانا. رزقنيه الله ببركة الشيخ **أبو عاقلة**، وأكرمني بحضورك مولده.

ابتسم الخليفة فأضاء وجهه، ورفع يده فانسحب جلبابه الأخضر ليكشف ذراعًا بضة مشعرة. قال:

– سبحان الله يا الحبيب. كنا في سفرنا قاصدين المدينة. ربُّك لحكمةٍ يعلمها ولا نعلمها ألهمنا المبيت في قريتكم خلافًا لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم بسفر الليل.

تجاوب الجمع مع ذكر النبي، فكرَّروا في غمغمة موحدة:

– صلى الله عليه وسلم.

إلا مجذوب وحيد صاح بعلوِّ صوته:

– عليه الصلاة والسلام. يا رسول الله أنا عاشق.

ثم طوَّح رأسه إلى الخلف فانتثرت ضفائره الخشنة القصيرة. ناداه الخليفة متبرمًا من قطع حديثه:

– اجلس يا الحبيب بارك الله فيك. خلاص. خلاص.

جلس المجذوب متمهلًا وهو يهز رأسه بانتفاضاتٍ كالمصروع، ويغمغم بصوتٍ بالكاد يُسمَع:

– سبحان الله واحد. سبحان الله اتنين. سبحان الله تلاتة. سبحان الله أربعة.

تناول الخليفة حبة تمر وهو يقول:

– السـنة قالـت «عليكم بالدلجـة، فإن الأرض تُطـوى بالليل»، هذه الأرض.

أشار بكفِّه الممسكة بالتمرة.

– هذه الأرض كلها، رب العزة سبحانه وتعالى يطويها بالليل. يعني تقصر المسافات، ويُقرِّب البعيد. سبحان الله.

كرَّر الجمع التسبيح وأعينهم معلقة بالخليفة. قضم بأسنانه رأس التمرة، ومضغها بعناية، ثم أخرجها من فمه تسيل لعابًا. مشى عليها بإبهامه، وحشرها في فم المولود وألصقها بسقف حلقه. ثم مال على أذنه اليمنى وهمس بالأذان.

ولما فرغ، أمسك المولود بكلتا كفيه ورفعه إلى **النور** بابتسامةٍ مشرقة وقال:

– خذ ابنك يا الحبيب. أسأل الله أن يجعله قرة عين.

صاح الجمع:

– آمين.

– وأن يرزقه من العمر...!

ضاعت بقية العبارة مع قفزة المجذوب فجأةً وهو يصرخ:

– سبحان الله عشرين.

وصاح الجمع بتلقائية:

- آمين.

ارتبك الناس، وخطف **النور** ابنه من يدي الخليفة مفزوعًا. صاح أكثر من واحد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- يا حرقة حشا **النور!**

وتمنى بعضهم:

- يا خليفة، قُل «لا يقع».

- سألتك بالله يا شيخ قُل «لا يقع».

لكن خليفة الشيخ **أبو عاقلة** قال لهم في وجوم:

- لله الأمر يا أحباب. أمر الله نافذ. والفأل من الله يا جماعة. إنها سنة. والعبد أمام أمر الله ضعيف.

فتصايح الناس:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- الخير فيما اختاره الله.

- المولود وديعة من الله يستردها متى شاء. تصبَّر يا **النور**.

– في حواصل طير خضر إن شاء الله يا **النور**. شدّ حيلك.

وغمغم المجذوب بصوتٍ بالكاد يُسمَع:

– سبحان الله سبعة وعشرين. سبحان الله ثمانية وعشرين.

الذين شهدوا الكرامة وأكلوا لحم الثيران الثلاثة والجمل لم ينسوا تلك الليلة، ولا **النور** الذي عاد بوليده منكسرًا ليضعه بين يدي والدته ويخبرها ما حدث. فتصيح **سكينة** وتنعي وليدها حتى تنسى أن ترضعه.

لذلك كان كل الناس يعرفون أن **مزمل النور** سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

لم يقدر **مزمل** على مواجهة هذه المعرفة في الدكان طويلًا؛ فبعد أقل من شهر انقطع عن الخروج إلى عمله. أمه ما سألته حين وجدته يعود إلى مجلسه جوار المزيرة. علمت ما هناك فارتاح لذلك قلبها. ولما عاد **النور** من زراعته قالت له:

– ما عاد يذهب إلى دكان **فقيري** مرةً أخرى.

النور، الذي لاحظ أن عمل الدكان لم يُحسِّن صحة ابنه ولا أخرجه من صمته وحزنه الدائمين، وافق على مضض. لكنه ظلَّ يفكر في أمر يشغل ابنه عن الجلوس لساعاتٍ مع نفسه لا يفعل شيئًا سوى الصمت. ثم أتاه الحل يوم الجمعة.

خرج ومعه **مزمل** كعادتهما إلى الجامع العتيق للصلاة. وبينما يتوضئان مرَّ بهما شيخ المسجد **عبد القادر** داخلًا يعبق بعطرٍ زيتي نفَّاذ. وقف عليهما وألقى إلى **نور** السلام. ثم نظر إلى **مزمل** وقال:

– الله يصبّر والديك يا **مزمل**. برَّهما ما استطعت.

أجابه **النور** وهو يغسل ساعده:

– بارك الله فيه. لا يقصر عن خدمتي أو خدمة أمه.

– نعم الابن والله.

ثم قال قبل أن يفارقهما:

– يا **مزمل** الله يباركك، بعد أن تفرغ من الوضوء املأ الأباريق حتى تيسر الوقت على من يأتون إلى الصلاة متأخرين.

هزَّ **مزمل** رأسه دون كلمة. ولما قضى **النور** الوضوء، ترك ابنه يملأ الأباريق وهرول ليلحق بالخطبة. وبينما كان شيخ المسجد **عبد القادر** يتكلم عن عقوبة تارك الصلاة، كانت الفكرة تتنزل على **النور**. وفي ركعتي الجمعة قلَّبها في عقله حتى ارتاح إليها مع التسليم.

لما أفرغ الجامع العتيق مَن بداخله، جذب **النور** الشيخ **عبد القادر**. مال عليه ليختنق بعطره وقال:

– يا شيخ! الكل يعرف أن **مزمل** لا يعيش طويلًا.

قال الشيخ:

– لله الأمر يا **النور**. كل الناس تعرف ذلك.

– وهو يموت –بعد عمر طويل– يوم يكمل عامه العشرين.

– كلنا شهدنا ما حدث يا **النور**.

– طيّب! من يموت في العشرين رجل مكلف أم غلام مرفوع عنه القلم؟

– بل هو رجل مكلف.

– فـ **مزمل** يموت –بعد عمر طويل– وهو رجل بالغ.

– إن شاء الله.

– الحين **مزمل** لا يعرف يقرأ أو يكتب، ولا يحفظ من القرآن غير الفاتحة وإنَّا أعطيناك الكوثر. فبدلًا من بقائه بلا شغل، لو خدمك في المسجد؛ يملأ الأباريق وتعلمه القرآن، ويصحب الناس في مكان لا يعابثه فيه الأطفال أولاد الحرام.

– يا **النور** بيت الله ما هو لعبة.

– يا شيخ أستغفر الله أن أحتقر بيت الله. لكن بيت الله هو بيت المسلمين، والولد على الفطرة. يخدم بيت الله ويتعلم القرآن.

فكَّر الشيخ **عبد القادر** لوهلة. نظر إلى **مزمل** في موقفه بعيدًا وحيدًا مطرقًا يحرك أصابع قدمه في الرمل.

– طعامه أنا ما ملزم به.

قال **النور** بسرعة:

– أمه تأتيه بالطعام كل يوم.

– على بركة الله. باكر من صلاة الظهر يبدأ يخدم المسجد وأنا أعلمه القرآن.

– والصبح يا شيخ **عبد القادر**؟

نظر إليه الشيخ بعتاب:

– الصبح ما فيه زول يحتاج خدمة. الصبح لا يحضره غيري وعمّك **سليمان**.

أحنى **النور** رأسه في حياء وقال معتذرًا:

– المشاغل يا شيخ وأنت تعرف التعب. وربنا رفع القلم عن النائم.

– النوم غفلة قلب يا **النور**.

لم يعبأ **النور** بالتأنيب؛ فقد ملأه أمل يشغله أن ينسجم **مزمل** مع مهمة خدمة المسجد، وأن يجد من يتكفل به النهار كافة بدلًا من جلوسه قرب

أمه في المطبخ أو عند المزيرة. ويحفظه المسجد من عبث الأطفال، فلا يعود يتضرر من سوء أخلاقهم.

و**سكينة النصري**، بعد تمنُّع وتخوُّف، ملأها الأمل ذاته؛ فصارت تُهرَع بالغداء كل يوم إلى الجامع العتيق وتقف على بابه مناديةً وهي تنكس رأسها توقيرًا لبيت الله. فيأتيها الشيخ **عبد القادر** هاشًّا ليتناول منها ما تحمل. تسأله -كل يوم بلا ملل- عن **مزمل** كيف هو؛ فيشير لها برأسه أن تنظر إليه. فتتطاول وتنظر داخل الجامع فتراه متربعًا قرب العمود، يهتز أمامًا وخلفًا والمصحف في حجره. يطمئن قلبها وترجع مبتسمة.

ثم يعود **مزمل** إلى البيت عصرًا، فيجلس إلى المزيرة ويبدأ بمراجعة ما حفظ نهارًا من القرآن، أو التدرُّب على ما تعلم من الكتابة واللغة.

الآن، صارت النسوة، اللائي يزرن أمَّه، يربتن على رأسه في حنو ويهمسن:

- يجعله شفيع لك يا **مزمل**. الدنيا خربانة.

والكبار، الذين يصلون في الجامع، يرمقونه وهو يملأ الأباريق، يغمغمون:

- حمامة مسجد. الله يرحمه.

والسيارات، التي تمر بقرب القرية، يشير راكبوها إلى الجامع العتيق ويقولون:

– هذا هو الجامع، الذي يخدم فيه **مزمل**، الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

وشيخ المسجد **عبد القادر**، إذا أكمل حفظ ربع من المصحف، يقول له:

– يوم القيامة يُقال لقارئ القرآن اقرأ وارتق. الله يصبّر والديك على فراق ابن مثلك.

و**النور حسين** سعيد، فقد كفَّ الصبية عن إزعاج **مزمل** بذكر الموت ومعايرته به. يرفع كفيه إلى السماء ويقول:

– رب لك الحمد.

وتقول زوجه **سكينة**:

– لوجه الله صبرنا.

والحاج **سليمان**، العجوز الوحيد الذي يحضر إلى صلاة الصبح، ينظر إلى **مزمل** ويبتسم.

كان منذ عاد إلى القرية متقاعدًا وهو بلا ونيس. حاول أن يجالس رفاق صباه القدامى أمام دكان **عيسى فقيري**، لكنه فشل.

سنوات عمله سائقًا في شركة الأسمدة بالعاصمة أكسبته خبراتٍ جعلت أحاديث القرية سخيفةً على نفسه. ما عاد يذكر علاقات القرابة المتشابكة في القرية، التي تغرَّب عنها أربعين سنة، زارها فيها سبعًا وثلاثين إجازة، وأنجب من بنت عمه خمسة أولاد. لا يهمه ما يحكون عن زيجات بعضهم، أو محاصيلهم، التي نسي مواسمها، أو نعي موتاهم، الذين لا يذكر حياتهم.

فإن حدثهم هو عن مميزات السيارة الهليمان كابورليه، لم يميزوها عن اللوري الهوستن! ولم يعرفوا سيارة الأوستن موريس 1100 التي كان يفضلها المدير الإنجليزي، ويعدها أفضل السيارات. أما فنادق الجراند هوتل وإكسلسيور، التي دخلها مع موظفي الشركة، فهي مجهولة لديهم كجهلهم بما وراء القمر.

فكان، لذلك ونحوه من عجز التواصل، مجبرًا على البحث عن تسلية يقضي بها وقته في انتظار الموت. فهداه الله إلى الصلاة –وما كان مواظبًا عليها قبلًا– وقراءة القرآن الذي يتعثر فيه كطفل.

يقول لزوجه بنت عمه، التي يعيد التعرف عليها:

– دين الله فيه حكمة. الواحد بعد ما عَمِل عَمَل الدنيا كله ربنا يفتح عليه بحلاوة صلاة المسجد وقراءة القرآن.

فكان يتسكع بعد الصلوات في المسجد يقرأ المصحف الذي يكتشفه

كأنه أُنزِل للتو. ويضحك حين يمر بسورة يوسف وخبر امرأة العزيز. ويُدهَش حين يعرف أن القرآن فرض الصيام إلى الليل. ثم جاء **مزمل** ليكسر عليه وحدته.

ذكَّرته زوجه بعلاقاتٍ متشابكة، وقراباتٍ معقدة، تجعله لـ **مزمل** في منزلة الجد. قالت:

– **الحسين** أبو **النور** هو ابن **عبد الرحمن حسين حاج مكي**. وأمك -رحمها الله- **أم أبوها** بت **نصر**. و**نصر** أمه **بتول** أخت **حاج مكي**.

ينظر إليها في عدم فهم؛ فتقول:

– أشرحها لك بطريقةٍ أبسط. جدك **نصر** هو ابن أخت **حاج مكي** جد أبو **حسين** أبو **النور**.

حسين من؟

تقول مغالبةً غيظها من عجزه عن فهم الحسبة البسيطة:

– جدك **نصر** هو عم **عبد الرحمن** جد **النور**، ابن عمة أبيه.

– والله أفهم الفرنساوي ما أفهم الذي تقولين.

ثم ينصرف عنها مكتفيًا بأنه يُعَدُّ -في حسابات القرية- جدَّ الصبي الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

يجلس **مزمل** بعيدًا متهيبًا، مستوحشًا الناس كعهده. لكن السنوات التي مرَّت عليهما معًا داخل الجامع العتيق قاربت بينهما على مهل.

أكمل **مزمل** عامه الخامس عشر، ورمحت أيامه لتلتهم العام السادس عشر.

كان قد ختم القرآن برواية حفص، وصعب عليه الانقطاع عن المسجد؛ فهمس إلى الشيخ **عبد القادر** إنه راغب في القراءة كما يقرأ الفلَّاتة. استبشر الشيخ بطلبه وفرح؛ فمنذ أكمل دراسته بالمعهد العلمي في العاصمة ما سأله أحد عن القراءات، بل لمَّا جرؤ مرةً على قراءة الفاتحة ﴿*الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ*﴾، صوَّبه **عيسى فقيري** بصوتٍ جهور قائلًا:

– مالك.

فتجاهله وأكمل حتى قرأ ﴿*اهْدِنَا* السِّرَاطَ *الْمُسْتَقِيمَ*﴾، فقال **عيسى فقيري** بنفاد صبر مدققًا:

– الصراط.

وعبثًا حاول الشيخ **عبد القادر** أن يشرح بعد الصلاة أنه ما لحن ولا أخطأ. قال لهم:

– هذه قراءة قنبيل عن ابن كثير المكي.

لكن الناس صاحوا به:

– لا قنبيل ولا زنبيل يا شيخ. إمَّا أن تقرأ القرآن كما نزل على سيدنا النبي أو تعتزلنا.

– هل نترك قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم لنقرأ بكثير أيش وقليل أيش؟

– اتقِ الله يا شيخ.

فمن حينها هجر القراءة بغير حفص عن عاصم التي تألفها القرية. وواظب زمانًا على القراءة ببقية القراءات إن كان وحده لا يسمعه أحد، ثم تطاول عليه الزمن فهجرها ولزم حفص عن عاصم في سرِّه وعلانيته.

لذلك طار بالفرح حين طلب **مزمل** أن يعلمه قراءة ورش، التي يتلو بها المهاجرون النيجيريون من الفلَّاتة، الذين يمرون بالقرية في طريقهم إلى حج بيت الله راجلين. ينزلون بالقرية في شهر جمادى الآخرة. يقولون عادةً إنهم خرجوا من بلادهم في صفر من العام السابق، ومشوا على أقدامهم ستة عشر شهرًا، ويقطعون من هنا ستة أشهر أخرى مشيًا حتى يدخلوا البلد الحرام. في البداية ظنَّ الناس أن القراءة، التي يتلون بها القرآن، إنما سببها الإرهاق وطول المشي الذي أفسد نطقهم لكتاب الله. ثم لما تتابع قدوم الفلَّاتة عامًا بعد آخر، وكلهم يقرأ بالطريقة ذاتها، عرف أهل القرية أن هذه قراءة خاصة بهؤلاء القوم العجيبين. يحجُّون مشيًا في نحو عامين، شديدو الاجتهاد في العبادة، ولهم قرآن يخصهم. هذا غير

أنهم لا يؤمنون بكل شيوخ البلاد وأوليائها، ولا يصدقون سوى في ولي يُسمُّونه سيدي أبو العباس أحمد التجاني.

كان الدرس الأول لـ **مزمل** أنها قراءة ورش، لا الفلَّاتة.

وكرَّت قراءة ورش أخواتها. وكرَّت القراءات سعادةً للشيخ **عبد القادر** باستذكار ما كاد ينسى، وطمأنينةً لـ **مزمل** في الجامع الذي ارتاحت روحه إليه، وتقاربًا بين الحاج **سليمان** وقريبه الصبي.

وقال **النور حسين** بفخرٍ وهو يرقب تحسُّن صحة **مزمل** وابتسام عينيه:

– الولد لو عاش يصبح فقيهًا كبيرًا.

وتذكره **سكينة** زوجه:

– **مزمل** ولد حشاي يموت يوم يكمل عامه العشرين.

– لله الأمر من قبل ومن بعد.

الحاج **سليمان** –الذي استحق لقبه بحكم السن، وتشبيهًا بأنداده الذين ما بقي فيهم من لم يؤدِّ الفريضة– ما كان يُحدِّث **مزمل** عن الموت.

وجد الحاج **سليمان** عند **مزمل** الجهل ذاته بالمدينة والحياة الذي وجده عند الكبار الجالسين أمام دكان **عيسى فقيري**. لكنه وجد عنده ولعًا بالمعرفة ما وجده عندهم.

الصبي في أعوامه الخمسة عشر كان ككتابٍ لم تخطَّ فيه الدنيا سطرًا بتجربة. اللهم إلا تجربتين قصيرتين، واحدة لرعي الغنم، وأخرى للبيع في الدكان. أما ما سوى ذلك فالحياة عنده تنحصر بين مطبخ أمه، والمزيرة، والجامع العتيق.

قال له الحاج **سليمان** متعجبًا:

– ألم تذهب شرق القرية إلى الصحراء؟

هزَّ **مزمل** رأسه.

– ألم تذهب إلى حوش **ود صالح** المهجور الذي تسكنه الشياطين عند طرف القرية؟

هزَّ **مزمل** رأسه.

– حي العبيد شمالًا، حيث أجود الخمور البلدية، والشراميط.

هزَّ **مزمل** رأسه.

– حفلات الطنبور في مسرح المدرسة أعلى القرية إذن.

هزَّ **مزمل** رأسه.

– المقابر أسفل جبل الصحابة لترى الموتى العائدين.

هزَّ **مزمل** رأسه.

– يا لك من غلام مسكين!

هكذا، وبعزم تبشيري، قرَّر حاج **سليمان** أن يُعرِّف الصبي، الذي سيموت بعد أقل من خمس سنوات يوم يكمل عامه العشرين، كل أنواع المتع والموبقات التي لم يسمع عنها.

قال:

– على الأقل سيكون لديك الخيار يا ابني. أو تعرف ماذا تهجر. كيف يعيش للطاعة من لم يعرف المعصية؟ وكيف يأتي إنسان إلى ربه وليس معه معصية أو كبيرة؟ هذا تحقير لرحمة الله وعفوه. لا يجوز.

يحكي له عن المدينة وشوارعها وفنادقها. مشروب الجنّ، والبيرة أبو جمل. بنات الجامعة ونساء الخواجات، خصوصًا نساء الخواجات.

و**مزمل** يسمع بعينين متسعتين من لهفة المعرفة.

سأله الحاج **سليمان** إن كان يعرف الحساب؛ فأجابه بالنفي.

– عيب كبير. الشيخ **عبد القادر** علمك القراءة والكتابة والقرآن وما علمك الحساب؟

هزَّ رأسه.

– لا بأس. أنا أعلمك الحساب أيضًا. تعرف، اللغة العربية من علوم الدين، فهي عمل آخرة. أما الحساب فهو علم دنيا، لذلك أنا أعلمك إياه مع ما أعلمك من الدنيا.

ويوم يلتقط الحاج **سليمان** علامات الزمن تمشي في وجه **مزمل**، يسأله بلا حرج:

- بتشوف بت إبليس؟

يجيبه **مزمل** في حياء بأنه احتلم فعلًا؛ فيضحك حاج **سليمان** ويربت على ظهره.

ما حاول **مزمل** تجربة أي شيء مما علمه حاج **سليمان**، ولا أعاده بينه وبين نفسه. كان يكتفي بلذة سماع الحكايات من معلمه، الذي تكشَّف له عن رجل خليع مهزار جاوز السبعين من عمره. ولا فكر الحاج **سليمان** أن يدفع **مزمل** إلى تجربة ما يحكيه له. كانت لذته أن يستعيد ذكريات ماضية ويمررها إلى مستمع ما. غير ذلك فقد واظب كلاهما على القرآن والتعبد. بل بدأ **مزمل** -متأثمًا من الأحلام الجنسية التي تنزل به، ومستزيدًا من حلاوة التعبد- في قيام الليل، وصيام الإثنين والخميس. ثم ألزم نفسه بصيام الثلاثاء والجمعة معهما. ثم أرفق بهم الأحد بعد وقت قليل.

اجتهاده في العبادة لفت النظر إليه.

قال **النور حسين** لأمه:

- يا **سكينة** ولدك أصبح فلَّاتي.

وقال **عيسى فقيري**:

- الولد يتعبد كأن في عنقه دم قتيل.

وقال راكبو السيارات، التي تمر بقرب القرية، مشيرين إلى البيوت المتناثرة:

– هذه قرية **مزمل**، العابد المجتهد، الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

ويصل خبر العابد الشاب إلى خليفة الشيخ **أبو عاقلة**؛ فتزداد ابتسامته اتساعًا، ويقول:

– الولد ده أنا حنّكته بنفسي.

فيقول أتباعه جماعة:

– حلاوة ريقك ما وهبته العبادة.

وما يقدر الحاج **سليمان** على مواصلة العبادة بعد بلوغه الثمانين، وهو العام الذي بلغ فيه **مزمل** التاسعة عشر.

فقعد الحاج مكرهًا إلى سرير بيته يشكو آلام المفاصل وتوغل الرطوبة. ثم نزلت بعينيه غشاوة فذهب بصره إلا بصيص. وخدمته زوجات أولاده. لكنه كان يرسل في طلب **مزمل** ليستعيد معه أحاديثهما التي لا يعلمها غيرهما. الحاج **سليمان** يحكي ويضحك، و**مزمل** يسمعه ويبتسم في تحرُّج.

ولأن الحاج **سليمان** كفَّ بصره، ما قدر أن يرى وجه **مزمل** وهو يرجع يومًا وراء آخر إلى حال وجه أم موسى عائدة من اليم.

مشى الحزن الكظيم فيه حتى سوَّد لونه، وبات كل يوم يمرُّ يأخذ من لحمه الذي حمل فيُنحفه.

وأمه **سكينة** تُخرج الورقة المكتوب بها حساب عمره من الدولاب، فتجتهد في إعادة الحساب، ويختلط عليها العد. تحسب مرةً فتجد أن **مزمل** مات منذ سنتين وستة أشهر وثلاثة أيام. ثم تعيد الحساب فتجد أن بينه والموت خمسة أعوام وشهرين وتسعة أيام. فيشغلها خلط الأعداد، وتهجر مطبخها وتستقر إلى جوار المزيرة ممسكةً الورقة في يدها، هائمةً مع الحساب.

ووالده **النور حسين** يجلس أمام دكان **عيسى فقيري**، بقميصٍ قصير يكشف ساقيه. يقول للناس في تسليم:

– الروح وديعة من الله. وصاحب الوديعة أحق بها. لله الأمر من قبل ومن بعد.

يغمغمون مواسين؛ فيقول:

– الحمد لله. الحمد لله على كل شيء. أنا صابر ومحتسب.

يسأله الشيخ **عبد القادر** بحزنٍ بيِّن:

– كم تبقى له؟

– أمه تحاول الحساب، وأنا والله لا أعرف. أنا رجل مزارع، لا أحسب إلا مواعيد سقاية الزرع وحصاده. ما تعلمت حساب عمر الناس. أنا والله ما أعرف كم عمري.

يسأله **عيسى فقيري** في اهتمام:

– أنت أكبر أم **عبد الرحمن**؟

يستفهم **النور**:

– **عبد الرحمن**؟

– **عبد الرحمن** ابن **شاذلي موسى**.

يقول **النور** مستنكرًا:

– لا! **عبد الرحمن** أكبر مني بكثير.

يقول شيخ **عبد القادر**:

– يا راجل اتقِ الله. **عبد الرحمن** أكبر منك؟

يهتف **النور** في حماس:

– أي والله. سنة ختاني **عبد الرحمن** كان يدور في حي العبيد يسكر وينام مع الخدم.

يقول **عيسى فقيري** متشككًا:

– ربما خُتِنت كبيرًا.

– أبدًا والله. كنت صغيرًا جدًّا. أذكر يوم أمسكني أبي ليقودني إلى حكيم الصحة. كنت ألعب عند حوش **ود صالح** مع الصبية.

يسأله أحد الجالسين:

– كان الباب القديم موجود؟

– الباب؟

– أيوه. باب الخشب القديم.

يصمت **النور** متذكرًا، ثم يقول:

– لا، لم يكن هناك باب.

يهز **عيسى فقيري** رأسه في تسليم:

– إذن فعلًا **عبد الرحمن** أكبر منك. الباب سرقه **عبد الرحمن** وأصحابه وباعوا خشبه وسكروا بثمنه في حي العبيد.

يقول **النور** في انتصار:

– أنا متأكد.

– لكن والله شكلك في مثل عمره.

– الشقاء والزراعة يا شيخ **عبد القادر**.

– حال الدنيا.

– نعم حال الدنيا.

– لا تترك أحدًا على حال.

– دوام الحال من المحال.

– كان أبي دائمًا يقول «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا».

– يا سلام. كان يقول هذا القول؟

– أي والله. كان دائمًا ما يردده.

– الله يرحمه. كان رجلًا حكيمًا.

– وكان أيضًا صاحب نكتة.

– تصدق! أنا أتذكره.

– حقًّا؟

– أي والله. كان يجلس أمام بيتكم ويجتمع حوله جدي، وجماعة منهم **ود صالح وحسين حاج مكي** و**إبراهيم أبو الجاز**.

– صح. صح.

– ما شاء الله، أنت ذاكرتك قوية.

يقول **عيسى فقيري** في خبث:

– قلة المسائل. لو كان يكثر منها مثلكم لنسي ما أكله في الإفطار.

– المسائل تمام والحمد لله. لكن المشغولية والهم لا يجعلان للواحد عقلًا يفكر به.

يتنحنح شيخ **عبد القادر** ويميل على الجالسين. يهمس إلى **عيسى فقيري**:

– أنت يا **عيسى** بطول لسانك، سألتك بالله كم مرةً تفعلها؟

ضحك **عيسى فقيري** وقال:

– كم مرةً في الليلة؟

ضحكوا في استهجان، وصاح **النور حسين** وهو يبتسم ابتسامةً واسعة:

– كم مرة في الليلة؟ أتحداك إن كنت تفعلها مرةً في الشهر.

يهم **عيسى فقيري** بأن يجيبه لولا أن غمزهم أحد الجالسين:

– يا جماعة، الصوت مرتفع، و**مزمل** ولد **النور** يقف أمام منزلهم. سيسمعنا.

يلتفتون فيجدون الشاب، الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين، يقف على عتبة بابهم. ما بينهم وبينه إلا الطريق الترابي الواسع. لكن بصره شارد لا ينظر إلى شيء.

يسأل **عيسى فقيري** همسًا:

– هل تظنوه سمعنا؟

يتحرَّج شيخ **عبد القادر** وهو يقول في أسف:

– هذا آخر الهزار والكلام بلا معنى. يسمعنا الصبية نقول مثل هذا الكلام.

قام **النور حسين** من مكانه، ورفع يده لـ **مزمل**. ناداه:

– ما لك تقف عندك؟ أذاهبٌ إلى صلاة المغرب؟

مزمل لا يجيبه، بل لا يبدو أنه سمعه. ينزل عتبات البيت ثم يمشي شمالًا.

ناداه شيخ **عبد القادر**:

– يا **مزمل!** صلاة المغرب أوشكت. أين تذهب؟

لكن الشاب يوليه الصمت ذاته. يرقبونه يختفي مع انحراف الشارع يسارًا. سترته عنهم البيوت فما عادوا يرونه.

– شيء غريب.

– ما هي عادته.

– لم يردَّ على شيخ **عبد القادر**.

– لم يردَّ على **النور** أبيه نفسه.

ينازع القلق **النور** فيقرر اللحاق به. يقول له أحد الحضور:

– أنا سآتي معك.

– انتظرني أدخل البيت، ألبس جلابية فوق هذا القميص ونذهب.

عبر **النور** الطريق الترابي الواسع وقفز عتبات الباب ودخل مسرعًا. وهو يعبر فناء البيت سمع صوت الشهيق، حادًّا متشنجًا. نظر إلى يمينه فرأى زوجه **سكينة** أسفل المزيرة تنشج ولا تقدر على أخذ أنفاسها. هُرِع إليها في هلع. أقعدها وجلس جوارها يحتضنها ويسأل:

– ماذا بك يا **سكينة**؟ قولي باسم الله. استعيذي بالله من الشيطان. ماذا بك؟

أخذت تشهق بين ذراعيه وفي قبضتها ورقة الحساب. ترفعها في وجهه فلا يرى شيئًا. يقول لها:

– صلي على النبي يا **سكينة**. قولي لي ماذا في الورقة.

يخرج صوتها متقطعًا مع شهيقها:

– **مزمل. مزمل. مزمل.**

– ما له **مزمل**؟

– عشرين. عشرين.

– يا **سكينة** صلي على النبي. كل الناس تعرف أن **مزمل** سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

تتمتم بما لا يسمع. يضمها عليه أكثر، ويسأل:

– ماذا تقولين؟

– باكر. باكر يا **النور**.

– باكر؟

سكينة كانت في مجلسها المفضل منذ شهور عند المزيرة عندما دخل **مزمل** قادمًا من زيارة الحاج **سليمان**. مشى إليها في هدوء وجلس جوارها. لم تلتفت إليه. كانت في شرودها تحاول إجراء الحسابات المختلطة. وكالعادة تفسد الأمر فلا تعلم هل وُلِد ابنها بعد أم مات منذ زمن.

مدَّ يده وتناول منها الورقة. تركتها له بعد تردد. مدَّ يده الأخرى فأعطته القلم طواعيةً وهي تنظر في عينيه. يسكنهما الحزن. يسكنهما الهم.

وضع علامةً على عام مولده، وعلامةً أخرى على العام الحالي. حولت بصرها إلى القلم وهو يمشي به على الأرقام. يشطب. يكتب. يجمع. ثم توقف. انتظرت أن يكمل الحساب. لكنه لم يفعل. لم يكتب آخر رقم. رفعت بصرها إلى وجهه. تنهد وقال لها:

– أمي! ادّيني العفو والرضا. أنا بكرة أكمل عشرين سنة.

تركها يشلها الفزع وخرج. لم يعرف أحد أين ذهب.

القرية انقلبت رأسًا على عقب. وفي ظلام الليل، مشى الناس جماعاتٍ

يحملون الفوانيس والكشافات، يبحثون عن الشاب الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين، غدًا. فتشوا الشوارع كلها، وبحثوا عنه في النادي، وفي حوش **ود صالح** غير خائفين من الشياطين الساكنة به. مرُّوا أمام البيوت ونادوا عليه. نزل بعضهم إلى ضفة النيل.

لكنهم لم يجدوه.

وعندما تسلقت الشمس قبة السماء، صرخ **النور حسين**:

– يا ولدي.

وفي بيتها، ناحت **سكينة النصري** بين المواسيات:

– يا حُرقة حشايا!

الشيخ **عبد القادر** قال بحزن:

– أتى أمر الله. الولد ميت الآن بلا جدال.

– سبحان من له الدوام.

قال **عيسى فقيري** من بين دموعه:

– يا جماعة سترة الميت دفنه. يجب أن نعثر على الجثمان.

– إن كان غرق فالجثمان يحتاج إلى ثلاثة أيام قبل أن يظهر.

– أرسلوا الخبر إلى القرى على مجرى النيل ليترقبوه.

وحين بدأ المعزون يجتمعون عصرًا في بيت **النور حسين**، كان **مزمل** يستيقظ في حي العبيد.

مشى **مزمل**، لما نزل من عتبات منزلهم، في طريق القرية الواسع حتى انحرف به يسارًا، ثم مال معه يمينًا مرةً أخرى خلف زريبة **عبد الرحمن شاذلي** وتوجه شمالًا.

خرج من القرية ومشى في الخلاء ساعة، يشق غبشة المساء، حتى بلغ حي العبيد.

كانت المرة الأولى التي يدخل فيها الحي. يرى في الظلام أشباح البيوت الطينية الفقيرة. تبدو من نوافذها أضواء الفوانيس، وتخرج منها همسات حميمية وضحكات السكارى. صعاليك من قرى المنطقة، سائقو لواري، صيادون يهجرون مراكبهم على الشط ويصعدون بحثًا عن المتعة، سماسرة بلح محدثون، كلهم يقضون أيامهم في بيوت حي العبيد. لا يغادرون إلا بعد إفلاسهم. الظلام ينزل على الدنيا فيطليها سوادًا. مشى بين البيوت التي يتصاعد منها الضجيج حتى عثر ببيت يلفه السكون. بابه مفتوح ليس عليه ستر قماش كسائر البيوت، وأضواء الفوانيس تتدلى من شبابيكه لتفترش الرمل. وقف أمام الباب مرتبكًا. أتت به الرغبات المتحدية. لكنه لا يعلم ما يجب أن يفعله. فقط لا يريد أن يلتقي بناسٍ من أهل القرية في ليلته هذه. قرَّر ألا ينتظر الموت على فروة الصلاة.

«كيف يعيش للطاعة من لم يعرف المعصية؟ وكيف يأتي إنسان إلى ربه وليس معه معصية أو كبيرة؟ هذا تحقير لرحمة الله وعفوه. لا يجوز».

سيجرب المعصية هذه الليلة فيعرف ما ترك. ويقدم على ربه غدًا طاهر الذيل إلا بقعة. يحمل صلاته، وصيامه، وقرآنه، وبر والديه، ورضا أمه، وليلةً في حي العبيد.

تنحنح أمام الباب، ثم نادي بصوتٍ خافت:

– السلام عليكم ورحمة الله.

لم يجبه أحد؛ فتقدم قليلًا وكرَّر بصوتٍ أعلى:

– السلام عليكم.

سمع الضحكة الخشنة.

– السلام يا زول السلام. أنت داخل المحكمة؟ ادخل.

زادت السخرية من توتره فهمَّ بالرجوع، لكن فراغ الباب امتلأ بشبحٍ ضخم، وشمَّ رائحة الصندل تفوح في الدنيا.

– أهلًا بالسلام. ما قالها لنا أحد منذ خلق الله حي العبيد.

كانت المرأة تحجب الضوء القادم من خلفها فلم يميزها، ولا رأت وجهه. مدَّت يدها فجرَّته من يده ودخلت به حجرةً طينية.

لما غشيه الضوء أغمض عينيه، وسمعها تقول متعجبة:

– أنت صغير السن.

فتح عينيه وشدَّ قامته وقال بحدة:

– لست صغيرًا. أنا كبير بما يكفي.

نظرت المرأة إليه مليًّا وبادلها النظرات. كانت ضخمةً كأنها بقرة العمدة. لونها كالقهوة الرائقة، جلدها يلمع بدخان الطلح. أنفها مفلطح كخفِّ جمل، وشفتاها كحجر رحايا. ثدياها وردفاها أكبر من الجامع العتيق.

لم يرَ فيها **مزمل** شيئًا جميلًا، ولا شابهت تلك الخيالات المشوشة الملامح التي كانت تزوره في منامه. أما هي فلمعت عيناها الضيقتان وهي تقول:

– أنا أعرفك. أنت الولد الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

قال لها:

– أنا لم أمُت بعد. وجئت أريد ما يريده الرجال.

أطلقت ضحكتها الخشنة كشعرها القصير.

– يا حبيبي! أنت لا تطيق ما يطيقه الرجال.

– لست أقل من أي رجل.

نظرت إلى تصميمه باهتمام. قالت:

– أنا الليلة بلا زبائن. يمكنني أن أهتم بك. الرجولة يا حبيبي تعلُّم. سأمشي بك طريق الرجال من أوله، خطوةً خطوة. وربما بعد تكرار زيارة كهذه لأشهر تطيق ما يطيقه الرجال.

– لا وقت لدي. ولا أحتاج إلى تعلم شيء. أنا أعرف كل شيء.

– يا حبيبي! لا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها.

قال في تصميم:

– أريد ما يريده الرجال.

هزَّت كتفيها العاليتين. قالت:

– كما تشاء. ستدفع ثمن حلة اللحم وجركن خمر أولًا. ثم بعد ذلك ننظر ما يتبقى منك.

قال في تهور:

– أريدك أنت أيضًا.

ضحكت في مرح.

– اصبر لنرى ما يبقى منك بعد الخمر.

– أريدك قبل الخمر.

قالت متعجبة:

– أنت عجول حقًّا أيها الشاب. حسنًا. فثمن اللحم، والخمر، وأنا مقدمًا.

أدخل يده في جيب جلبابه وأخرج لفةً من قماش مزركش. نقود صيانة منبر الجامع العتيق التي يحتفظ بها بصفته خادم المسجد. فتح اللفافة ونظر إلى النقود مفكرًا. لم يعرف كم ينبغي أن يدفع. تردَّد لوهلة ثم حسم تردده. أعاد لفَّ القماش على النقود ومدَّها إلى المرأة.

فُزِعت من فعله. صاحت:

– أنت مجنون؟

صمت. نظرت إليه فرأت عينيه تلمعان بالتصميم. تناولت النقود وقالت محذرة:

– لن تصحو صباحًا فتبكي مثل العيال وتقول أريد نقودي.

– لن أفعل.

أشارت إلى فراش قذر على الأرض.

– اجلس هنا إلى أن آتيك.

هُرِعت إلى باب البيت فأسدلت عليه ستر قماش علامةً على امتلائه، ثم عادت مسرعةً فأحضرت حلة الطعام وأشعلت تحتها الفحم على بعد

أمتار من الفراش الذي يجلس عليه **مزمل**. وهرولت في الفناء إلى حجرة بعيدة وهي تقول له:

- دقيقة. سأعود لك حالًا.

رجعت تحمل جركنًا أبيض امتلأ بالخمر البلدي، وضعته في ركن الحجرة، ومسحت كفيها في فستانها وقالت:

- الآن لا ينقصنا شيء.

ثم تنبهت فسألته:

- ما اسمك؟

- **مزمل**.

رسمت على وجهها -فجأةً كأنما تلبسها جن- ابتسامةً غنجة ومشت نحوه وهي ترتج بشحمها يمنةً ويسرةً في تأوُّد. ورفعت ساعدها الضخم وشوحت به وهي تغني:

- يا يمّه كان شفتي.. تغسلي وتكوي.. عقلي انسلب جيبي.. الزول المشلّخ تي.

ثم ارتمت جواره على الفراش كجبلٍ ينقض وهي تتنهد تنهيدةً حارة طويلة.

تمطت على الفراش وقالت بحرقة:

– تعبانة يا أنت.

لم يتحرك. ما عرف ما يجب عليه فعله؛ فمدَّت ذراعها ولفتها حوله. برد جسمه من ملمسها. لكن رائحة الطلح غزت مسامه فانتعشت ذكورته.

جرَّته ناحيتها وقالت بدلالٍ كالفحيح:

– متعب أنت. متعب. تريدني أن أفعل كل شيء؟

لم يعرف **مزمل** كيف اجتاز التجربة. طاش عقله، وفقد وعيه قدرة تمييز ما يحدث. ما أحسَّ إلا بالنشوة العارمة وهي تدله كيف يلجها.

مشى فيه الدفء الحميم. من أحشاء المرأة حتى رأسه. ارتعش ظهره. تشنجت رجلاه وهو يرهز فوقها وهي تصيح:

– وي وي وي وي.

لم يحسب كم مرةً فعلها. اختلط عرقها بعرقه، وملأت الدلكة جلده. تسلخت ركبتاه؛ إذ ما فطن إلى أنه يحركهما على الأرض خارج الفراش ويشحط بقدميه في التراب. انتفخ وجه المرأة وبدت شفتاها كالقربة المدبوغة. شعراتها الخشنات تبعثرت كشجر الشوك. ولما ارتمى بظهره على الأرض، كان صدره يعلو ويهبط مثل الذي سبح من العاصمة حتى القرية.

لملمت المرأة نفسها وجلست. لهثت. قالت ووجهها يتلوى:

– الله ينتقم منك. ده موت أحمر.

منحهما الصمت وقتًا ليشردا في ذكريات اللحظات الماضية. لا صوت إلا نهيج صدر **مزمل** وفوران اللحم في الحلة.

قالت له المرأة:

- هل تأكل الآن؟

حرَّك رأسه في نشوة ولم يجب. كرَّرت السؤال؛ فقفز فجأةً وصاح:

- عوووك.

تقافز في الغرفة في سعادة وهو يُلوِّح بيدٍ ويمسك بالأخرى سرواله كي لا يسقط، فضحكت المرأة. ثم هرول إلى جركن الخمر ورفعه عاليًا فسقط عنه سرواله. صاح:

- لا وقت للأكل.

- يا مجنون، الخمر سيشقُّك.

لم يهتمَّ لتحذيرها. شرب قائمًا حتى دارت الغرفة. ضحك. جلس، وشرب جالسًا حتى دار حي العبيد. قهقه. دفع الجركن فانكفأ وتدفق منه الخمر. نام على وجهه وشرب من الأرض حتى دارت الدنيا بما فيها. رطن بشيءٍ ما فهمته المرأة ثم غاب عن الوعي، بينما كان صوت آذان الفجر يتسلل خافتًا قادمًا من الجامع العتيق.

وحين بدأ المعزون يجتمعون عصرًا في بيت **النور حسين**، استيقظ **مزمل** مُشوَّشًا.

رأسه ثقيل كأنما ينوء بقبة الشيخ **أبو عاقلة**. معدته تأكلها النار. حرَّك أطرافه فوجدها كلها هناك. نظر متعجبًا إلى الحجرة المغسولة بنور الشمس. موقد به رماد. جركن مُلقى على الأرض قرب ركن الغرفة. بقعة من الطين كأن هناك من صبَّ الماء على تراب الأرض. وهو يرقد على فراش قذر عند الحائط.

فتَّش عن ذكرياته؛ فأتته متمهلةً لكنها مرتبكة.

حي العبيد. المرأة. الشيخ **عبد القادر**. جركن الخمر. الحاج **سليمان**. أمه تمسك ورقة الحساب. **عيسى فقيري**. التلاميذ الذين يعودون من المدرسة -أعلى القرية- ظهرًا يمرُّون أمام بيتهم وينادون:

- الموت الموت يا **مزمل**.. بكرة تموت **يا مزمل!**

نقود المسجد في قطعة قماش مزركش. الحاج **سليمان**. النسوة، اللائي يزرن أمَّه، يربتن على رأسه في حنو ويهمسن:

- يا مسكين. تموت صبي. الدنيا خربانة.

قراءة ورش. الحاج **سليمان**. الموت الذي كان موعده اليوم.

هبَّ فزعًا.

- أنا حي.

جاءت المرأة على صيحته. ابتسمت له. تبدو في النور أكثر بشاعةً مما رآها في ضوء الفانوس.

– صباح الخير يا الفحل.

أجابها في ذهول:

– أنا حي!

– الحي مثلك وإلا فلا.

نظر حوله. الدنيا التي كان آخرها فجر اليوم. الدنيا الجديدة التي خُلِقت من عدم فجر اليوم. هل مات وبُعِث في حي العبيد؟ أترى معصيته أسقطته من حساب الموت؟ هل كان موته كرامةً له، أم تراه أخطأ الحساب؟

انكفأ على الأرض. خطَّ بإصبعه تاريخ السنة على التراب. كتب أسفله تاريخ ميلاده، ثم حسب على أصابعه أيام الشهر حتى تيقن من أنه في صبيحة ليلة ميلاده. الحساب صحيح. فما الخطأ؟ لن يموت يوم يكمل عامه العشرين؟

تراجع بظهره إلى الحائط. ثنى ركبتيه إلى صدره واحتبى. أراح ذقنه على ركبتيه وشرد.

المرأة قالت له:

– لولا ما فعلته أمس لما تركتك تنام عندي حتى هذا الوقت. تعرف!

الزبون الذي ينتهي يجب أن يذهب فورًا ولو كان خليفة الشيخ **أبو عاقلة**. النظام نظام. من يريد أن يبقى عليه أن يدفع أجرة أسبوع. لكن أنت شيء آخر.

لم يجبها؛ فمشت نحوه وجلست جواره. مسحت بيدها على شعره وقالت:

– هل تريد أن تأكل؟ اللحم الذي دفعت ثمنه موجود.

كأنه لا يجلس هنا.

– لو أردت أن تأتي في أي وقت سأكون سعيدة. أنت لست مثل بقية الرجال. هم يأتون طلبًا للذي تعرف، ويسكرون ويفتعلون المشاجرات. ويسبوننا. لا أحد منهم يحترمنا. لكن أنت تبدو مختلفًا.

سجعت قمرية في حوش البيت.

– هل أنت نادم لما فعلنا أمس؟

اكتسب صوتها حنينًا.

– يا **مزمل!** الدنيا سيئة. ربك لن يغضبه إن أخذنا منها ساعة فرح وفرفشة لأنفسنا. ما هي الدنيا بلا ساعة انبساط؟ في النهاية الدنيا آخرها كوم تراب. وكل شيء زائل، وكل حي للموت. إن ما انبسطنا كيف نقول إننا عشنا؟

هبَّ واقفًا. نظر إليها تائهًا. قال بصوتٍ متحشرج:

– أشوفك بخير.

قالت بشيءٍ من خيبة أمل:

– ستذهب؟

قال في حزن:

– لا بد أن أذهب. لا يمكنني ألا أذهب. لكن شكرًا لك على كل شيء.

– باستطاعتك البقاء إذا أردت.

– ليس باستطاعتي أن أريد إلا الذهاب.

أولاها ظهره وخرج.

مشى بطيئًا مغادرًا الغرفة، فالبيت، فحي العبيد.

سار متعثرًا في الرمال ناحية جبل الصحابة بعيدًا جهة الغرب.

الشمس تهرب من أمامه فترمي ظله خلفه. يشيعه ببطءٍ إلى مقصده. جوفه يحترق بجمرات الخمر، وينهشه الجوع فما ذاق طعامًا منذ الأمس. أوصاله مفككة من الجهد.

حتى إذا وصل عند جبل الصحابة وجد تحته ما يقصد. المقابر التي سمع عنها كثيرًا وما زارها. وصفها له الحاج **سليمان** غير ما مرة، وشاهد

مواكب التشييع تخرج من القرية تحمل بنيها إليها فلا تعود بهم. هنا، عند قدمي الجبل، ينام الذين ماتوا.

تخطَّى القبور بحذرٍ حتى وقف ببقعةٍ متاحة في وسط المكان. نزل على الأرض بركبتيه وأنشب في الأرض أظافره.

أخذ يحفر بيديه العاريتين قبره.

ولسنواتٍ كثيرة آتية، ستمر السيارات بقرب جبل الصحابة، ويشير راكبوها إلى المقابر المتناثرة ويقولون:

– هنا ينام **مزمل**، الذي مات يوم أكمل عامه العشرين.

* * *

حكاية حُسنة بنت قنديل
وما جرى بسببها

دفع الشيخ **محمد ود دياب** باب البيت داخلًا بعد العشاء.

انصرف المصلون، ورفعت الملائكة أعمال الصلاة والذكر. ما تبقى من عبادة ليلته إلا مودة زوجه. ترك قيام الليل منذ وهبته حُسنة نفسها.

كان الشيخ محمد ود دياب قبلًا صوَّامًا قوَّامًا. كان في بدء أمره مؤذن حيِّه، ثم ترقى في مقام أولياء الله بالعبادة والبصيرة من أربعين سنة؛ فصار من أولياء الله وأصحاب الكرامة. ما قُسِم له حج، لكن أتباعه من الفقرا يقولون إنه حج طيرانًا. صام دهره، وقام -محتسبًا- ليله، فما شكت ذلك زوجه **ميمونة** بنت الشيخ **خوجلي**، إنما كانت عونه على مرِّ التعبد. فلما زاره الهناء مع **حُسنة** ناله من التفريط شيء، لكن عقدة قلبه بقيت على الإيمان.

مرَّ بباب حجرة **ميمونة** فوقف قليلًا يسمع دقات قلبه. وضع كفه

على الباب الخشبي المغلق. تمتم بالدعاء لها، ثم تحرك ناحية حجرة **حُسنة**. انفلت داخلًا في الظلام. شمَّ البخور الذي يملأ الحجرة فملأه سحرًا.

سرى في الظلام يطلب سريرها، لكنه سمع الصوت من أقصى الحجرة. وقف جامدًا يحاول اختراق العتمة ببصره. لمع الضوء لوهلةٍ ثم مسَّ رأس الشعلة فاتقدت. انتشر الضوء في الحجرة؛ فرأى **حُسنة** جالسةً في ركن قصي ترتدي قميصًا من الكتان المصبوغ، وشعرها محلول يحف وجنتيها ويكسو عنقها.

همَّ بالتقدم نحوها لكنها صدته بنظرة. جمع نفسه في مكانه وقال:

– السلام عليكم يا قرَّة العين.

زامت بشفتيها دون أن تجيبه، وقطَّبت جبينها.

قال مداعبًا:

– ردُّ السلام فرض يا **حُسنة**.

قالت بغيظٍ بادٍ:

– وحقُّ المستضعفات ضائع يا شيخنا.

تحرك ناحيتها لكنها تحركت في مكانها محذرةً فنكص. قال لها:

– ما يزعجك يا حبيبتي؟

- لا تهبني معسول الكلام، فلن ينسيني مرَّ فعالك.

خلع عمامته دون أن يحلها وألقاها على الفراش المبعثر. قال لنفسه:

- أتاك يا محمد ما كنت تحاذر!

أخرج قدميه من خفه الجلدي المدبوغ ومشى في الحجرة حافيًا. ارتاحت قدماه لملمس الحصير المخصوف. وقف أمام صندوق ملابسه وفتحه. خلع جلبابه وحشره به. عاد إلى الفراش وجلس. مدَّ رجليه إلى أقصاهما وقال:

- أي جرم أتيته لأستحق غضبك؟ هل تشاجرتِ مع **ميمونة** مرةً أخرى؟

هرَّت كقطٍّ غاضب وهتفت:

- لا تذكرها لي.

ميمونة بنت الشيخ **خوجلي** كانت قد وهبت أيامها طوعًا لـ **حُسنة**. ولمست -منذ أيامها الأُول- رفض العروس الصغيرة للخدمة، فقامت بها راضية. كانت تحمل عصيدة الدخن وقدح اللبن إلى باب حجرة ضرتها. تضعهما على الأرض، تطرق الباب، ثم ترجع إلى حجرتها لتقوم ليلها. لكن **حُسنة** كانت تناوشها بالشجار كلما سنحت فرصة. فربَّ آية تُسمَع من حجرة **ميمونة** تُتلى تثير سخط **حُسنة** فتثور كهبوب الخريف.

تسلل -مرةً- من حجرة **ميمونة** صوتها تتلو ﴿*وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ*﴾؛ فحطمت **حُسنة** مشط الكهرمان الذي اشتراه لها الشيخ محمد من تجار أعاجم في سوق شندي، وقالت مغاضبةً إن **ميمونة** تلمزها بالقرآن. هاجت ليلتها حتى أصبحت باكيةً تنعي بؤسها. وما رضيت حتى أتاها الشيخ محمد بمشط كهرمان آخر ومرآة هندية ذات نقوش. **حُسنة** مليحة كأنما اسمها وصف صادق، لكنها حادة الطباع سليطة. يقول الشيخ محمد مواسيًا نفسه ورادًّا على نظرات **ميمونة** المعاتبة:

- للشباب في النفوس زهو.

قالت له:

- منذ كم تزوجتني يا شيخ؟

قال الشيخ محمد وهو يحاذر:

- مرَّ نحو شهر من الهناء أو يزيد.

- خمس وثلاثون يومًا يا شيخ.

- كلهن أيام مباركات يا **حُسنة**.

هبَّت من مقعدها وقالت في غيظ:

- فأين ما وعدتني؟ وهبتك نفسي دون مهر أو صداق على أن تردَّ لي حقي من **عبد المحسن**.

نكص الشيخ محمد رأسه وقال في خفوت:

– ما نسيت يا **حُسنة**.

– بل تناسيت. قلت قد قضيت مأربي من البنية المهيضة. لا أهل لها ولا عز؛ فلا حاجة لقضاء وعدي.

– وعدي على رقبتي سيف يا **حُسنة**.

قالت بسخرية:

– على رقبتك سبحة من اللالوب يا شيخ محمد، أما وعدك فأكلته الأيام.

في ليلة كهذه طرقت **حُسنة** بابه.

نادت بصوتٍ هامس، فأتاها الجواب بالدخول. دلفت إلى البيت متشحةً بثوبها الأزرق وسكينتها.

ألفت الشيخ محمد ود دياب جالسًا على فروة صلاته. مربوع القامة، مائلًا إلى القصر، أسمر اللون. في أنفه كبر، كثيف اللحية، تكاد كل شعرة من شعراتها تنطق وتقول هذا ولي الله حقًّا. رأسه مرجلة، يرتدي جلبابًا مُرقَّعًا بالتقوى وألوانٍ متنافرة. من عنقه تتدلى مسبحة من اللالوب، وعلى منضدة يتيمة شعلة تعابثها الريح الخافتة.

جلست بين يديه. أولاها نظرةً ثم غض.

قالت للشيخ:

– أتيتك لحاجةٍ ملحة.

قال لها:

– مقضية بإذن الله.

لكن حُسنة ألحت:

– أريد منك عهد الله والشيخ الجيلاني سيد الأولياء أن تقضيها.

تحرك الشيخ محمد على فروته؛ فصخبت حبات اللالوب على عنقه. عدَّل جلسته وكرَّر:

– مقضية بإذن الله!

– أعلمت أن الشرع أحلَّ للمرأة أن تهب نفسها للرجل الصالح؟

– بذلك جاء الحديث الشريف يا بنتي.

– فأنا جئتك أهبك نفسي.

بُهت الشيخ محمد ورفع بصره ينظر إلى المرأة مذهولًا. لم يجد ما يقول لوهلَة. ثم استجمع بعض كلمات فقال:

– أنا شيخ في أرذل العمر يا بنتي، وليس لي مال أمهر به مثلك.

– أهبك نفسي بلا مهر ولا صداق.

– فما حيلتي في كبر السن يا ابنتي؟

قالت في تصميم:

– أنا امرأة لا تريد إلا القراءة مع الحيران والرياضة على اللحيان. ولا يحفظ ديني سواك.

– في حيراني وطلبتي من يقوم ذلك المقام خيرًا مني، فإن شئت زوجتك بأحدهم وكفيت نفسك زواج العجائز.

هزَّت رأسها وقالت:

– حاجتي لا يقضيها غيرك، وشرطي لا ينجزه سواك.

– أولك شرط؟

– نعم! الشيخ **عبد المحسن القريشابي**.

اربدَّ وجه الشيخ محمد لذكر الاسم.

حين أخبر زوجه **ميمونة** تغضَّن وجهها لبرهةٍ ثم قالت:

– أيحل هبة المرأة بلا مهر يا سيدي؟

قال لها وهو يجهد لقراءة الغيرة في ملامحها:

– جمهور فقهاء الظاهر أنه لا يحل لغير النبي.

– فما يكون من أمر هذه المرأة؟

صمت الشيخ محمد. استحضر ملامح **حُسنة** الحلوة كقبلة. قال:

– يجوز للولي ما لا يجوز لغيره.

– وماذا عن الشيخ **عبد المحسن**؟

– قد طلقها طلاقًا بائنًا وانقضت عدتها.

– أعني شرطها يا سيدي.

قال في تسليم:

– ليمضِ أمر الله.

الآن **حُسنة** تطلب وفاء وعده. قال مدافعًا عن نفسه:

– وعدي كما هو يوم قبلت شرطك. ما مرَّ زمن كافٍ لإنفاذه.

– خمس وثلاثين يومًا يا شيخ.

– كنتُ بعد عروس. على يدك أيامي.

– عروس لشهر؟ جعل الشرع للثيِّب مثلي ثلاثة أيام فقط.

قال متلطفًا:

– هذا لغيرك من النساء، أما أنت فثلاثة أشهر بحقِّك قليل.

صاحت في تنمُّر:

– بل بحقِّك أنت. أما حقي فما زال ينتظر وفاء الشيخ.

قال وقد بدأ الضيق يدبُّ بداخله:

– يا **حُسنة** لا تغلظي القول. وعدي كما بذلته. ولولا ما تعلمين مني نحو **عبد المحسن** ما وهبتني نفسك. فاصبري.

نظرت إليه في دهشة وقد بدا عليها التردد. قالت:

– ماذا تقصد؟

كسا الضيق وجهه وقال مجاهدًا الكلمات:

– الشيوخ كثير، وفيهم من هم أكثر مني سعةً في الرزق وأصلب عودًا. فلو كنت طالبةً زوجًا لوجدت غيري، لكنك تعلمين ما بيني و**عبد المحسن**. فصبر جميل. أنا صبرت خمسين سنة، فلا تصبرين أيامًا؟

تحركت نحوه وقالت ملينةً الكلام:

– لا تقل هذا يا سيدي! فوالله ما وهبتك نفسي إلا حبًّا في الله ورغبةً في أن أكون في كنفك أنت لا غيرك.

تأملها ونفسه تستعر بتكذيبها، لكن قلبه هوى لمرأى لهفة عينيها. دبَّت في عروقه الأنوار الإلهية وتعبأ بالعشق. قال لها في ضعف:

– حقًّا يا **حُسنة**؟

قالت بحرارةٍ وهي تضع يدها حول عنقه:

– وحقِّ محبتك في قلبي يا سيدي.

رجف جسده واهتزَّ عصبه. يدها على عنقه بضة ندية، وجسدها معبق بدخان الطلح يداعبه.

ليلة دخل بها وقف يتلو أذكار إتيان الزوجة. اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جُبِلت عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جُبِلت عليه. ثم لهج بالدعاء لنفسه:

– اللهم إني اسألك بكل اسم هو لك، سمَّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تشدَّ أزري وتقوي عصبي وتنفخ في قوتي. اللهم إني أسألك بحقِّ **محمد** وجبريل وإسرافيل وميكائيل والخضر والجيلاني أن تهبني باءة الشباب.

ثم رفع يده بمسحوق حَبِّ العزيز وقذفه في فمه. حركه بين شفتيه قليلًا ثم ابتلعه مرةً واحدة. دخل على عروسه متهيبًا. مرَّ وقت طويل منذ سكن إلى امرأة. زوجه **ميمونة** تشد مئزرها مثله وأكثر. عجوز في أواخر الخمسين من عمرها. نزل الزمان وطول التعبد بها فأكلا أنوثتها كالصدأ إذا أكل الحديد. ليست لها في الزواج غاية إلا التقوى ودخول الجنة بحسن المعاشرة. لا تعصي له أمرًا ولا تراجعه في كلمة. ما نادته

منذ تزوجها إلا بقولها «يا سيدي»، ولا رفعت صوتها فوق صوته حتى للنداء، وما نظر إلا وهُرِعت تقف تحت نظره منتظرةً أمره. عاشرها أكثر من أربعة عقود فما وجدَ إلا البر وحسن التبعُّل.

ما كان يطلب أكثر من ذلك وهو بعد في عنفوان شبابه، فكيف وقد جاوز السبعين. لكن حُسنة كانت واعدةً بغير ما خبر وعرف. دخل عليها متهيبًا الجسد الفتي الذي لم يكمل الثلاثين. مدملجة كبرتقالةٍ على غصن. وجدها تنتظره في ثوب من البصراوي الأخضر فاخر يليق بزوجة باشا، بلا أكمام يبرز ذراعين كما المرجان، ينتهي عند ركبتيها كاشفًا عن ساقين يخطفان لبَّ سليمان، يحبسهن خلخالان من فضة. يفوح جسمها برائحة الصندل.

ليلتها غنته بصوتٍ كمزمار داوود:

«الحكيم عاين لي وراح

قال لي يا زول ما فيك جراح»

ليلتها بدت السعادة كوجه الله إذا تجلى.

وعند الفجر ناجته الملائكة أن هنيئًا لك.

وعده الذي وعد واجب النفاذ. وحُسنة ما عادت تجد للصبر مكانًا.

وحين لفَّت ذراعها حوله وقالت:

– أنت سيدي. ما تزوجتك إلا رغبةً فيك.

قرَّر أن يرمي تأنيه ويشرع في انتقامها. داعبت بأصابعها لحيته الحمراء بالحناء فخرج صوته راجفًا:

– غدًا أنظر في أمر **عبد المحسن**.

لمعت في عينيها بيارق النصر، لكنها غطتهم سريعًا بمسحة دلال وقالت:

– دعنا منه ولا تذكر لعدوِّنا اسمًا في هذه الليلة. فلنكمل ستًّا وثلاثين ليلةً من الهناء بلا هموم.

جذبته من يده ودخلت به ساحة الرضا حتى أُترَع.

في غده بكَّر بالبعث في طلب **المضوي** أنجب حوراييه. أتاه عجلًا في مجلسه بالمسجد القديم. وقف أمامه فتأمله الشيخ برهة. جسده الطويل ووجهه الصبوح بالإيمان. قال له:

– أنت حواري ونجيبي. فإن بعثتك إلى خطر تمشي؟

قال **المضوي** في عزم:

– أفعل ما تأمرني به يا شيخي وإن بعثتني إلى غضب الله.

ابتسم الشيخ في رضا. قال:

– هات اللوح فأنا أريد أن أبعثك برسالة.

– أفعل ما تأمرني يا شيخي.

جاء **المضوي** باللوح وتربع بين يديه منتبهًا إلى ما يمليه شيخه.

عبث الشيخ بلحيته قليلًا. قلَّب أفكاره في رأسه، ثم شرع يُملي:

– من عند الشيخ محمد بن الشيخ **دياب** سليل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

رفع **المضوي** قلمه عن اللوح، وسأل:

– هكذا بلا بسملة يا شيخي؟

ابتسم الشيخ محمد. قال:

– بلا بسملة يا **مضوي**. هذه رسالة بتراء كمَن ستذهب إليه.

أحنى **المضوي** رأسه وشرع يكتب. قال الشيخ:

– من عند الشيخ محمد بن الشيخ **دياب** سليل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى عند عبد المطرود. أما بعد، قال الله عز وجل ﴿*وَآتُوا* النِّسَاءَ *صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً*﴾. وأنت خالفت كتاب الله وسنة الرسول وغصبت صداق الحرة. أنت ماك **عبد المحسن**، بل أنت عبد المطرود.

والمطرود هو إبليس. فادفع لـ **حُسنة** بنت **قنديل** المعلومة لديك حقَّها، أو أنا أقوم مقامها في خصومتك. وأنت تعلم من أمري ما لا يمكنك دفعه أو إنكاره. فلو شئت لأخرجتك من مسجد الباشا وجعلتك أحقر من غلام النجار. وأنا أعلم حرصك على الدنيا وطلبك للنعيم، وقد بعت آخرتك بدنياك، وأنا بدعوةٍ واحدة أُذهب عنك دنياك إن لم تعطِ المرأة المذكورة حقَّها. فتكون يا محسور لا حفظت دنيا ولا ترجو آخرة.

طلب من تلميذه أن يعيد عليه تلاوة ما كتب. تفكر فيه. ثم طلب أن يغير «غلام النجار» فيجعلها «كلب السقا». محاها **المضوي** وأوشك أن يكتب ما أمره شيخه، لكن الشيخ محمد استمهله ثم قال:

– بل دعها غلام النجار، فذلك خير من أن يشكو أني قلت له يا كلب. وغلام النجار مُحتقَر بما يكفي.

أعاد **المضوي** كتابة ما محا، ثم صبَّ على اللوح حفنةً من رمل وهزَّه ليثبت الحبر.

قال الشيخ محمد:

– اذهب باللوح إلى **عبد المحسن** ود **حمد** المدعي أنه قرشي. ولا ترجع إلا بجوابٍ منه.

ما تـردد **المضوي** لحظة. قفز واقفًا محتضنًا اللوح ومشى في حاجة شيخه.

المضوي كان يعرف -ككل أهل الجزيرة اسلانج- أن ما بين شيخه والشيخ **عبد المحسن** خراب لا مودة فيه. والرسالة التي يحمل كفيلة بحرق قلب الشيخ **عبد المحسن**، فربما أصابه من غضبه شيء. لكن **المضوي** ما كان ليتردد في طاعة شيخه.

«أفعل ما تأمرني به يا شيخي وإن بعثتني إلى غضب الله». **المضوي** كان أطوع لشيخه من طينٍ لبنَّاء؛ فهو معلمه وأستاذه ومنقذه.

كان **المضوي** في بدء أمره مراكبيًّا في مشرع الهوي. يحتال على العابرين وينشغل بالنساء. كان إذا ركب معه شخص أوقف المركب في عرض بحر النيل وحلف بالشيخ عبد القادر الجيلاني أن يُغرق المركب إن لم يدفع له الراكب أضعاف الأجرة المعروفة؛ فإذا لم يجد من الراكب قبولًا شرع يهز المركب ويصرخ:

- الحين يجي الغرق. يا راكب الموج قول الشهادة. الحين يجي الغرق.

حتى إذا تملَّك الفزع من راكبه دفع إليه ما يطلب، فيجيزه **المضوي** إلى البر الآخر وهو يغني:

«الله ليه الهرد كلانا

بالحسار والشوق شوانا

يا أم ضمير النوم جفانا

دُرنا شوف العين كفانا»

ويضحك في مرح لا يعبأ بذعر من معه. وما يترك حرة ولا أمة إلا وينظر إليها ويرسل غمزاته. فإن أحسَّ منها لينًا تبعها إلى بيتها وإن كانت بنت باشا أو خادم فكي. حتى إذا بعث الله إليه بالشيخ **محمد ود** دياب قبل أربعة أعوام بلا نذير، فكان انقلاب حاله.

استقر الشيخ محمد في المركب ونظر إلى المضوي في **سكينة** وقال:

– يا مراكبي! تعال عدّي عمَّك.

كان الشيخ يسافر وحده عائدًا إلى الجزيرة اسلانج قادمًا من منزل قاضي الديار. لا يحمل زادًا إلا التقوى، وما معه دليل إلا نور الله.

حين شرع **المضوي** يجدف داخلًا عرض بحر النيل سأله الشيخ محمد مكاشفًا:

– الحين نعدي أم نغرق؟

ذُهِل **المضوي**، لكنه قال لنفسه إنها مجرد مصادفة. ضحك وأجاب:

– كله بأمر الله يا فقير.

ثم لما وصلت المركب ربع بحر النيل أعاد الشيخ السؤال:

– يا مراكبي! الحين نعدي أم نغرق؟

– كله بأمر الله يا فقير.

فلما توسطت المركب بحر النيل هبَّ الشيخ محمد واقفًا فاهتزت. صاح **المضوي**:

– يا فقير اقعد.

ضحك الشيخ محمد وقال:

– أقعد للغرق؟ أنا ماشي. إنتَ تعال وراي.

ثم رفع ثوبه عن ساقه وسمَّى الله وجاوز حافة المركب. صاح **المضوي**:

– يا فقير الغرق!

لكن الشيخ محمد مشى على الماء كما الراجل يمشي على درب مُسوَّى.

ارتعش **المضوي** وطار عقله. شرع يجدف وهو يهتف:

– يا جيلاني من كل أمر مهلك. يا جيلاني من كل شيطان وجني.

حين وصل إلى الضفة وجد الشيخ محمد يجلس في انتظاره. قال له:

– يا مراكبي! أنا عبد الله أطيع أمره. كنت أقدر أن أسأل ربي فيحملني من بيت القاضي إلى مسجدي، لكن الأمر أتاني وأنا صاحي غير نائم. قال لي تمشي لمشرع الهوي. المراكبي هناك **المضوي**، تركب معه. فأتيت ملبيًا. فلما دخلنا بحر النيل كشف الله لي أمرك، وأعلمني حيلتك، وخيرني أن أغرقك أو أدعوك فتكون من حيراني.

لم يتردد **المضوي**. ترك مركبه في مكانها وتبع الشيخ **محمد ود** دياب. لم يرجع إلى أهله ولا بعث إلى والديه. لزم الشيخ **محمد ود** دياب كظلٍّ لعود. تعلم منه القرآن والفقه وعلم الباطن. فما كان ليعصي له أمرًا. فإن كان في بعثه إلى الشيخ **عبد المحسن القريشابي** هلاكه فهو ماضٍ.

مشى يومين وليلة حتى وصل عند المدينة الكبيرة حيث يقيم مقصوده. دخلها عصرًا وأخذ يسأل الناس في الطريق عن مسجد الباشا. دلوه عليه فوجده بناءً ضخمًا من الحجر الملون، به قبة عظيمة تزينها النقوش، وساحة واسعة مكنوسة ومرشوشة بالماء، وحول المكان مئات الحيران والتلاميذ يقرؤون القرآن فيصعد أزيزهم إلى السماء.

دخل المسجد. اغتسل من الغبار وتوضأ وقام يصلي. حين فرغ جلس إلى ركن ينتظر خروج الشيخ **عبد المحسن**.

كانت للشيخ **عبد المحسن القريشابي** مكانة كبيرة ومنزلة لدى الباشا في المدينة؛ فأنزله مسجده الجديد فأقام فيه واقتنى كتب الفقه والأصول والمنطق والكلام. وأذن له الباشا بالتدريس والفُتيا، وأجرى عليه أموالًا كثيرة، وسلَّمه إدارة أوقاف لا تُحصى. فصار الشيخ **عبد المحسن** سلطانًا للفقرا وأهل الله. يخشاه الشيوخ والأمراء قبل العامة. إلا الشيخ **محمد ود** دياب، فما كان يخشاه ولا يحسب لمكانته حسابًا. وكان ما بينهما معروفًا

مشهورًا بين الناس. لكن أحدًا ما كان يعرف متى سيواجه الشيخ **محمد** المعروف بالصلاح والكرامات الشيخ **عبد المحسن** بالغ النفوذ والثراء. إلا **المضوي**، فقد كان الآن موقنًا من أنه يحمل اللوح الذي سيبدأ المواجهة بين الشيخين. ما بين الناس والواقعة إلا أن يخرج الشيخ **عبد المحسن** فيناوله **المضوي** لوح شيخه.

بقي في مكانه حتى أذَّن المغرب. حينها سمع الجلبة، ثم رأى الحيران والفقرا يضجون بالهتاف. بدا في وسطهم الشيخ **عبد المحسن** يمشي في ثياب من القطن مصبوغة، وعليه عباءة فاخرة، وعمامة من الشاش. رجل طويل عليه مهابة. أنفه به فطس، مع لحية مُشذَّبة يخطُّها شيب خفيف. يحيي تلامذته باسمًا في طريقه إلى المحراب ليؤمَّ الصلاة.

قفز **المضوي** نحوه واعترض طريقه. هتف:

– رسول يا شيخ!

وقف الشيخ **عبد المحسن** ونظر إليه في صمت. مدَّ **المضوي** إليه اللوح فتناوله الشيخ من طرفه. أمسك به متمهلًا وقرأ ما به. كلما جاوز سطرًا اسودَّ وجهه. فلما ختمه رمى **المضوي** بنظرةٍ كقذف الرماح. أحسَّ **المضوي** بالخوف. هذه لحظة العقاب أتت. لكن الشيخ أمسك اللوح واستدار عائدًا إلى حجرته دون كلمة. هرج الفقرا وانزعجوا من رجوع الشيخ دون أن يصلي، وجذب بعضهم **المضوي** من جلبابه وسألوه في

حدة عن الخطاب الذي جاء به للشيخ فألهاه عن الصلاة. لكنه ما أجابهم إلا بالصمت. ثم استنقذه من بينهم نجيب الشيخ حين نهرهم وصاح:

– الصلاة يا عباد الله. الرسول اتركوه فهو مأمور. الصلاة لا تفوتكم.

ثم نظر إلى **المضوي** في غيظ وقال له همسًا:

– سيدي الشيخ **عبد المحسن** ينتظرك في حجرته. فإذا كبَّر الناس للصلاة ادخل عليه خلسة، ولا يراك أحد.

هزَّ **المضوي** رأسه فتركه النجيب ومشى إلى المحراب. أمر بصوتٍ جهور:

– أقم الصلاة.

تراجع **المضوي** على حين تسارع الحيران والفقرا للاصطفاف للصلاة. وحين كبَّر الناس هرول ناحية الحجرة التي دخلها الشيخ **عبد المحسن**.

أزاح ستر القماش الذي يغطي بابها فتلقاه البخور الهندي. انتعش به ودخل إلى الحجرة. الشيخ جالس على وسادة بلون الذهب بين كتبه النوادر التي ذاع صيتها في البلاد. سمع **المضوي** أن الفقهاء يأتون من القيروان ومكة للاطلاع على كتب الشيخ التي لا تُوجَد إلا عنده. أشار له أن اجلس. فأطاع **المضوي** في صمت.

بقي الشيخ **عبد المحسن** ينظر إليه زمنًا كأنما يختبر حقيقته. ثم رفع كفه

التي تحمل المسبحة وقال:

– إني سأسألك، فهل تجيب؟

– ما أُمِرت إلا بحمل اللوح إليكم. ما أنا بمأذون بالكلام.

– أتخشى محمد ود **عيشة** الصلعاء أكثر مما تخشاني؟

قطب **المضوي** جبينه وكرَّر:

– ما أنا بمأذونٍ بالكلام.

– فبمَ أذنك محمد؟

– قال لي يا **مضوي** تحمل هذا اللوح إلى الشيخ **عبد المحسن** ود **حمد القريشابي** ولا ترجع إلا بجوابه.

ابتسم الشيخ **عبد المحسن**.

– قال لك الشيخ **عبد المحسن** ود **حمد القريشابي** يا **مضوي**؟

ارتبك **المضوي**. لم يعرف ماذا يقول فلاذ بالصمت، لكن الشيخ **عبد المحسن** أكمل:

– هل قال لك ذلك أم أنك كذبت على شيخك بما لست مأذونًا به؟

دارت عينا **المضوي** في محجريها ذعرًا، وقال في اضطراب:

– ما قصدت الكذب على سيدي.

– لكنك فعلت.

صمت **المضوي**. فأعاد الشيخ سؤاله:

– ماذا قال يا **مضوي**؟

فقال في تسليم:

– قال لي امشِ باللوح إلى **عبد المحسن** ود **حمد** المدعي أنه قرشي، ولا ترجع إلا بجوابٍ منه.

انفجر الشيخ **عبد المحسن** بالضحك فجأةً حتى قفز **المضوي** من مكانه. لكن الشيخ أشار إليه –بين ضحكاته– مطمئنًا، فعاود الجلوس.

حين فرغ الشيخ من ضحكه قال:

– لا تخف يا **مضوي**. لقد كرهت ما كتبه لي شيخك أول مرة. أنا لست الرجل الذي يُخاطَب بمثل هذا الكلام. لكني عرفت سريعًا أن شيخك ما زال يحمل القلب الكريه ذاته بين جنبيه. إن دمه أسود من الحقد الذي يمشي فيه.

لم يردَّ **المضوي**. كان بين كراهية سماع التقليل من شيخه والخوف على مصيره.

قال الشيخ **عبد المحسن** في اهتمام:

– المرأة المذكورة، **حُسنة** بنت **قنديل**! كيف هي ومقامها لدى شيخك؟

خفض **المضوي** بصره هربًا، قال في مذلة:

- لست مأذونًا بالكلام.

سمع نحنحة من خلفه، وقال الشيخ **عبد المحسن** مشيرًا بكفه:

- ادخل يا **جابر**.

أحسَّ المضوي بمن يجلس على يساره فرفع بصره. كان النجيب الذي أنقذه من فضول الحيران. ينظر إليه في غضب. قال الشيخ **عبد المحسن** مخاطبًا حواريه:

- هذا يا **جابر المضوي**. تلميذ محمد ود **عيشة** الصلعاء.

تململ **المضوي** في مجلسه. ابتسم الشيخ **عبد المحسن** وقال له:

- يزعجك أن أسميه ود **عيشة** الصلعاء؟ هذه أمه. أما سمعت بها؟ كانت رحمها الله امرأةً طيبة، لكن الله ابتلاها بالصلع. كان رأسها كركبة غلام. فنذرت للشيخ عبد القادر الجيلاني إن وهبها شعرًا فإنها تحج راجلةً لا تركب قط. لكن سيدي الجيلاني رضي الله عنه أمسك عنها الإجابة حتى جاوزت الستين من عمرها. ثم بدأ الزغب الأسود يطل على رأسها كشنب مراهق. هل تصدق؟ وخلال عام كانت تملك جمةً كأنها فارس من البجا. لكن كانت هناك مشكلة!

نظر إلى تلميذه **جابر** وسأله:

– هل تعرف المشكلة يا **جابر**؟

– كيف تحج عجوز في الستين ماشية.

– نعم يا **جابر**. كيف لامرأةٍ في عمرها أن تمشي حتى البيت الحرام؟ وماذا تفعل امرأة في سنِّها بشعرٍ ما تفاخرت به في شبابها؟ لذلك قررت العجوز، التي عرفها كل الناس باسم **عيشة** الصلعاء، أنها ما عادت في حاجة إلى دعوتها ولا يلزمها نذر لا تقدر على وفائه. فقضت بقية عمرها تحلق شعرها ليلًا وتحرقه قبل الصباح حتى لا يحق عليها وفاء النذر. وحتى ماتت وقد جاوزت الثمانين، ما باتت ليلة دون ذلك.

المضوي موجوع مما يسمع. شيخه عنده مُقدَّس. ما ولدته أم كسائر الناس ولا يحق في شأنه منقصة. أما كفاه معرَّةً أن يدعوه غريمه بأمه حتى يحكي عنها مثل هذا؟ أم **المضوي** كانت كثيفة الشعر حتى دعاها الناس أم روبة، أي ذات الجمة الكثيفة بلسانهم. أفتكون أمه أكمل من أم شيخه؟ هل يصح في حق الشيخ محمد **ود** دياب، ولي الله الماشي على الماء، أن تكون أمه امرأةً يدعوها الناس **عيشة** الصلعاء، ويسخر منها هذا الفقيه الذي ما له عند الله كرامة ولا عُرِف بين الناس بمعجزة؟

نطق **المضوي** متألمًا:

– لماذا تعذبني بالحكايات؟

– لماذا جئت؟

قال بصوتٍ كالأنين من تحت وطء المهانة:

– ما كنت لأعصي لشيخي أمرًا.

– ومن يطيع شيخك؟ ربَّه أم **حُسنة** زوجه الجديدة؟

– يا شيخ **عبد المحسن** أعطني ردَّ الرسالة وأعتقني لوجه الله بحقِّ سيدي الجيلاني.

أشار الشيخ **عبد المحسن** لـ **جابر** فصبَّ شرابًا في إناء دفعه إلى **المضوي**. قال الشيخ:

– اشرب.

تردد لكن الشيخ كرَّر له الأمر، وقال:

– هذا دكاي من أجود البلح. سيقطع عطشك.

تناول **المضوي** الإناء وجرع نبيذ البلح على عجل. راقبه الشيخ **عبد المحسن** حتى فرغ. ثم قال مخاطبًا **جابر**:

– **المضوي** الفقير تضيفه عندنا ليلةً حتى يصبح. لا تُقصِّر معه فهو مسكين. وفي الغد يرجع إلى شيخه بجوابنا.

ثم التفت إلى **المضوي**.

– هل معك ركوبة؟

هزَّ **المضوي** رأسه بالنفي. فقال الشيخ:

– المسكين تعطيه دابة يا جابر. حمار أو جمل أو ما تيسر. لا يمشي حامل رسالة الشيخ عبد **المحسن القريشابي** سليل نسب بيت رسول الله على قدميه.

أجابه **جابر**:

– ما تأمر به يكون يا شيخنا.

– يا **المضوي**! أنا لا أكتب لشيخك ود **عيشة** ردًّا. مثلي لا يكتب لأمثاله. لكن قل له ما سأقول لك.

– أفعل يا شيخ.

– قل له الشيخ **عبد المحسن** ود **حمد** يقول لك المرأة **حُسنة** بنت **قنديل** أنا أعطيتها حقها في عصمتي وزيادة. لكنها أبت إلا الطلاق. وأنا قلت لها لا أطلقك إلا وتنزلين لي عن صداقك. فرضيت وأعفتني فطلقتها. الشيخ **عبد المحسن** ما هو مثلك يدعي الكلام بلسان الغيب ويخالف شرع الله. الشيخ **عبد المحسن** رجل فقه يحفظ حدود الله. المرأة أنا ما أكلت حقها، لكنها شيطان مُجلَّد بجلد إنسان فاحذرها. ولا ترجع تهددني كلما لعبت بشيبتك النسوان، وإلا أخرجك من مسجدك ذليلًا ككلب السقا، وأُطوِّب عليك دارًا فلا يدخل عليك بشر ولا ملائكة بطعامٍ حتى تهلك. فإن فعلتَ دفعتُ لأهلك ديتك غير باخل.

سأله مؤكدًا:

- هل حفظت؟

قال **المضوي** بصوت كالبكاء:

- حفظت يا شيخ.

ابتسم الشيخ **عبد المحسن**، وقال:

- الحين تقوم مع **جابر** وهو يكرمك. وغدًا تأخذ ركوبتك وترجع إلى شيخك.

نهض **المضوي** منهكًا ومشى خلف **جابر**. قبل أن يخرج من الحجرة قال له الشيخ **عبد المحسن**:

- المرأة **حُسنة** الله نجاني منها. لكن شيخك لن يهدأ حتى تروح روحه وراها.

بات **المضوي** على أسوأ حال. ورغم مقامه في حجرة وثيرة ما زارته راحة. وفي غده بكَّر بالخروج على الحمار، الذي منحه إياه الشيخ **عبد المحسن**، وشرَّق إلى وجهته محزونًا. حمل رسالة الغلظة من شيخه طائعًا ما يحمل همَّ ما يحدث له، لكنه يعود حاملًا جوابًا شفاهيًّا لا يقدر أن ينطقه لشيخه. ليت الشيخ **عبد المحسن** نكَّل به ولم يُحمِّله ما يحمل.

قطع الطريق في نهار واحد، وبعد المغرب بشيءٍ يسير كان يدخل بحماره الزريبة المجاورة لبيت شيخه **محمد ود دياب**. ربطه إلى وتد، وسار نحو باب البيت. وقف أمام الباب ونادى:

- السلام عليكم!

لم يأته جواب، فكرَّر النداء. برهةً ثم سمع حركة. تراجع وخفض بصره. فتحت **ميمونة** بنت الشيخ **خوجلي** زوج الشيخ **محمد** الباب. هرول الضوء خارجًا وارتمى على وجهه فميزته. ابتسمت له. كانت تحنو عليه وتعده كابنٍ لم يُقسَم لها. والدها الشيخ **خوجلي** بن **دفع الله** قطب العارفين، مرشد السالكين، منقذ الهالكين، الواصل إلى الله والموصل إليه، علم المهتدين ومظهر شمس المعارف، كان له من الولد سبعة من الذكور وتسعة من الإناث. ما فيهم واحد إلا ورزقه الله الولاية الكاملة كأبيه. إخوتها كواكب الدجى وحجة المتصوفة. يتكلمون في علوم الأولين والآخرين والأمم الماضية من غير نظر في كتاب. وأخواتها رُزِقن الذرية أممًا كما الأسباط. أما هي فأجدبت عن أن تنجب. ونفخ الله في روحها حب العبادة والاجتهاد كأنها رجل من أهل الصفة. لكنها كانت تُشبع ما يتطاول في نفسها من حنين بإسباغ الأمومة على جماعة من نجباء زوجها وصفوة تلاميذه، منهم **المضوي**.

سألها عن شيخه، فقالت:

- أتاه داعٍ من القاضي هذا النهار فرحل إليه.

– هل يعود في ليلته أم يبات يا أم الفقرا؟

– كان قديمًا إذا تأخر بات ليلته وأقبل في الصباح. لكن ما أراه يفعل بعد الآن.

لمس **المضوي** في قولها جرح النساء. فلعله لذلك أراد أن يُطيِّب نفسها بردِّ الشيخ **عبد المحسن**. ربما إن سمعت شديد الكلام الذي قاله في حق ضرتها يبرأ شيء مما بها. ولعله إن أفضى إليها بالجواب ما احتاج إلى أن يكرره أمام شيخه. قال لها:

– فأنا أحمل جوابًا لشيخي من الشيخ **عبد المحسن القريشابي**. فإن شئت حدثتك فتخبريه.

– هاتِ ما تحمل يا ولدي.

أعاد عليها ما قاله الشيخ **عبد المحسن** بحرفه. ما أسقط منه كلمة. حتى تحذيره الأخير. ودَّ لو يجرؤ على رفع بصره ليرى وقع ما تسمع عليها، لكنه اكتفى بمراقبة ظلها يرجف تحت قدميه.

– هل من شيء آخر يا ولدي؟

– هذا كل شيء يا أم الفقرا.

– شكرًا لك. سأخبر *أبوك الشيخ* حين يرجع.

تراجع بظهره دون أن يرفع بصره وقال:

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام ورحمة الله يا ولدي.

أغلقت الباب واتكأت عليه. ما هذا الهوان الذي أورثتنا إياه يا شيخ محمد. بعد أن عشت عمرًا موفور الجانب، مرهوب الكرامات، يقصدك أصحاب الحاجات، ويقسم بك المحبون، ما حكى عنك الناس هزلًا ولا تناقلوا لك خبرًا غير العبادة والصلاح ما خلا قصة قديمة، تقع في مشاجرات لا تسمع فيها إلا قبحًا؟ ترى كيف يتداول سكان المدينة الليلة هذا الجواب؟ وكيف يتحدث الناس عن ردِّ الشيخ **عبد المحسن** القاسي المتعالي على ولي الله.

تنهدت في هلع وقالت بصوتٍ خافت:

– غفر الله لك يا شيخ. حكاية قديمة كانت قد اندثرت ها أنت تعيدها إلى الناس حيةً بتنازعك مع الشيخ **عبد المحسن**.

ما من أحد في البلاد لم يعرف أن الشيخ محمد والشيخ **عبد المحسن** بينهما من الخصومة شيء كثير. لكن قلة قليلة كانت تعرف السبب. وما عاد يذكر من هؤلاء العارفين إلا بضع أشخاص ما حدث. تكفلت أعوام قاربت الخمسين بنسيان التفاصيل. وما بقي غير علم الناس بخصومةٍ لا يدرون من أين أتت.

حدث ذلك في زمان قديم، قبل قدوم الباشا. كانت البلاد تحت حكومة ملوك الفونج. نزلت بالملك نازلة فبعث يطلب أفقه أهل البلاد وأعظم أوليـــاء الله. دلَّه بعث الفقيه على الشيخ **عبد المحسن**. وجاء بعث الولي إلى والدها الشيخ **خوجلي**. لكن والدها قال للشيخ **محمد ود دياب** الذي كان شابًّا من نجبائه:

– الملوك أنا ما بدخل عليهم. لا يريدونني ولا أريدهم. وأنا كبرت وعمري جاوز التسعين، أي شيء أفعل في بلاط الملوك؟ لكن أنت لك سمت الرياسة. فإن أوقع الله الرضا عنك في قلب الملك نلت الخير.

وقبل أن يخرج أوصاه:

– يا ولدي! احذر مكر الله وسفه الملوك. فالملوك كالأطفال إذا غضبوا وإذا رضوا. جناح جبرين يغطيك.

ركب الشيخ محمد ود **دياب** معية المبعوث وقصد الملك. دخل عليه والشيخ **عبد المحسن** وحدهما وانصرف المرافقون، فألقى إليهما الملك بخطبه. قال:

– الخادم **مريوم** أنا تزوجتها من أسبوع. لكنها أغضبتني وجرى بيننا كلام مما يقع بين الرجل وأهل بيته. فأغراني الشيطان فطلقتها ثلاثًا. وأنتما أهل العلم والولاية، فأنا أريد منكم أن تفتوني ماذا أفعل.

ثم تهدج صوته وقال كالمتوسل:

– الخادم أنا أحبها. ولو ما رجعتها إلى ذمتي أموت.

تقدم الشيخ **عبد المحسن** بزهوه ورفع رأسه قائلًا:

– أنا الشيخ **عبد المحسن** ود **حمد**، ينتهي نسبي إلى علي زين العابدين بن الحسين سبط رسول الله. درست الفقه في الأزهر والحرم والقيروان والجزيرة الخضراء، وحفظت الأصول والحواشي ونلت عالي الأسانيد، أفتيك بما قال الله تعالى ﴿*فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ*﴾. وقال ابن عرفة: «لو زوجها لعبده ليسأله طلاقها بعد وطئها حلت به».

قال الملك متوثبًا:

– أنت مجنون يا فقير؟ أنا أحبها، فإن لمسها غيري أموت.

– لا أعلم لك في الفقه سبيلًا غيره يا من نُجِلّ.

صمت الملك مفكرًا، ثم توجه بالسؤال إلى الشيخ محمد **ود** دياب.

– وأنت يا فقير ماذا ترى؟

– أنا يا من نُجِلُّ ما رجلُ قالوا وأخرجوا. أنا تلميذ الشيخ **خوجلي** بن **دفع الله** رضي الله عنه. وأنا من جهة أبي حسني ينتهي نسبي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه. فنحن لا نحكي حكايات أهل الورق.

قال الملك في ضجر:

– علمنا نسبك يا فقير. هل ترى ما يراه هذا؟

– يا من نُجِلُّ أنا أزوجك بها حلالًا.

صاح الشيخ **عبد المحسن**:

– وكيف يكون ذلك؟ تخالف شريعة الله؟

قال الشيخ محمد دون أن ينظر إليه:

– شريعة ربنا ما يعرفها مثلك. أنا الرسول يأذن لي في ذلك. وصلاح حال الراعي من صلاح حال الرعية. فإن كان من نُجِلُّ في كرب فذلك يفسد معاش الناس. وأنا مأذون من رسول الله في الحلال والحرام. فلا أضيّع الرعية بمحفوظاتك وكتب القيروان ووريقات الأزهر. نحن أهل الجوهر والباطن لا شأن لنا بظاهركم وانقطاعكم عن الله ورسوله.

بدا القلق على وجه الملك. نقَّل بصره بينهما لوقت. ثم قال للشيخ **عبد المحسن** متلطفًا:

– يا فقير! سمعت ما يقول صاحبك. فلو أكملت لي طمأنينتي وأفتيتني بزواجها.

قال الشيخ **عبد المحسن** بانقباض:

– لا أجد لك إلا أن تزوجها غيرك ثم يطلقها فتحل لك.

– فأنا أعطيك ألفي دينار إن أفتيتني بالحل.

هتف الشيخ **عبد المحسن** غاضبًا:

– أنت سفيه.

بُهِت الملك وتراجع، وأكمل الشيخ **عبد المحسن** في حدة:

– تريد أن تحلل ما حرَّم الله وتشتري الفقيه بمالك؟

فار وجه الملك بالغضب. هبَّ من كرسيه واقفًا وبدا أنه سيثب على الشيخ **عبد المحسن** فيضرب عنقه. لكنه تمالك نفسه. رفع يده فنزل الصمت بالمكان.

– خلاص. أنت يا فقيه قالوا وقالوا كتَّر خيرك. باكر ترجع لأهلك.

ونظر إلى الشيخ **محمد ود** دياب وقال:

– وأنت يا فقير! باكر تزوجني **مريوم** وأنا في عهدتك يوم القيامة. ولك ألفا دينار وعهد أن تدخل عليَّ متى شئت.

ثم نادى بعلوِّ صوته الحرس. اندفعوا داخلين فأمرهم أن يقودوا الشيخين إلى حجرات الضيافة، قال:

– الفقرا أحسنوا ضيافتهما. وباكر يحضر هذا الفقير وتدعوا معه الناس. أما هذا فمن الصباح ترجعوه محل كان.

خرج الشيخان معية الحرس. وبات الشيخ محمد ليلته ينتظر الجاه الذي ينزل صباحًا. لكن مقادير الله جاءت بغير ما يظن.

دخل الملك ليلتها على حريمه مهمومًا يخشى عاقبة ما سيُقدم عليه. فتلقته أم العيال الست **حليمة** زوجته الكبرى وأم ولي عهده. لاطفته ولانت له وسألته عما يشغله. باح لها الملك بالقصة. فانزعجت أم العيال. قالت له:

– أما كفاك تزوجت الخادم وقلنا يتكلم الناس ويسكتون، فتريد أن تجمع على ذلك إشهار الزنا؟

– الفقير الحسني قال إن الرسول أذن له.

– الفقير الحسني يقول أكثر طالما علم أنك تجزل العطاء. لو قلت له أنا أتزوجك الآن وأجزيك ملكي لقال لك أذن لي **محمد** وعيسى وموسى وشعيب!

وما زالت به أم العيال تراجعه وتوبخه حتى انقلب رضاه المتشكك رفضًا. ثم تبعت ذلك تقول:

– الفقير الذي عصاك وعاندك رجل صالح. يخاف الله ولا يخافك. هذا تكافئه على ثباته؛ فيعلم الناس أنك تُقدِّر الشجعان وأهل الدين. والفقير الذي نافقك هذا رجل سوء. يخافك ولا يخاف الله. هذا تكافئه بالجلد حتى يبول.

تمنع الملك قليلًا ثم لان. وعدها أن يفعل غدًا. أما **مريوم** فقالت له بشأنها:

– مريوم خادمك ولا تملك أن ترفض. فإن أردتها فاستتر بالحرام. وإن شئت غيرها جلبت لك من الخدم من هن أحلى منها وأصبى.

قال الملك:

– الحرام لست من أهله. فلعل الله يبدلني خيرًا منها.

– وأنا آتيك في أيامك هذه بخيرٍ منها إلى أن يبعث الله لك سلوى.

هكذا، في غده ساق الحرس الشيخ **محمد ود** دياب والشيخ **عبد المحسن ود حمد** إلى حضرة الملك. ينتظر أحدهما جوائزه ويتعجب الثاني لماذا أُحضِر. ثم ذُهِلا لما نادى الملك:

– يا حرس! الشيخ **عبد المحسن** يُثاب على شجاعته ودينه. أعطوه خمسة آلاف دينار، وعهد الدخول عليَّ متى شاء، ولا يأتيني في شفاعة إلا قضيتها له. والشيخ محمد يُثاب على نفاقه جلدًا بالعصا حتى يبول.

ضرب الذهول الشيخ محمد. أفل نجم حظه دون إنذار، وبدا له الهلاك موشكًا، لولا أن قفز الشيخ **عبد المحسن** صائحًا:

– يا مولاي أنا أشفع فيه.

وقف الملك حائرًا. نظر إلى الشيخ **عبد المحسن** وقال:

– تشفع فيه وقد فعل ما فعل؟

– يا مولاي وهل الشفاعة إلا لأصحاب الذنوب؟ وما عظم ذنب إلا وعظمت شفاعته وعظم قدر العافي عنه.

الشيخ محمد كان يرجف في مكانه. ينتظر أن تُخسَف به الأرض أو ينادي المنادي. لكنه بكرامةٍ نجا.

عفا عنه الملك فخرج لا يصدق سلامته. فما انتظر الحرس أن يعودوا به، بل قذف نفسه في الخلاء يبحث عن طريق العودة وحيدًا.

أصابه الإعياء وأوشك على الموت جوعًا وعطشًا. مشى تائهًا تسع ليالٍ وعشرة أيام. تلقاه في مسيره منادٍ غاضب. ناداه من تبَّة بعيدة:

– أنت يا ود **دياب** تكذب على رسول الله تقول أذن لك؟

تجاهله ومضى في توهانه. لكن المنادي عاود الظهور.

– أنت يا ود **دياب** تظن الولاية بالكلام؟

تجاهله وسعى في ضياعه. لكن المنادي عاود الظهور.

– أنت يا ود **دياب** تحلل ما حرَّم الله؟

توقف وصرخ:

– تُبت! تُبت!

فصاح المنادي:

– قول الثالثة وأنا أوصلك أهلك سالمًا.

– تُبت.

أشار المنادي إلى جبل بعيد. قال له:

– امشِ هناك. بعده اتبع الشمس تصل. ولا تقل لأحدٍ إن الخضر أنقذك.

لم يعرف أحد كيف وصل الشيخ محمد **ود** دياب محله بلا زاد. وجدوه متهالكًا على سور مسجد الشيخ **خوجلي**. حملوه وأدخلوه إلى غرفة الحيران. بقي مريضًا لشهر. كلما سأل عنه الشيخ **خوجلي** قالوا له إنه غائب بالحمى. ثم قام من مواته كعزير.

هبَّ من مرضه وما به إلا بغض الشيخ **عبد المحسن القريشابي**. أسرَّ لشيخه **خوجلي** بما حدث دون نقصان.

قال له الشيخ:

– يا ولدي قلت لك الملوك كالأطفال. أنت لا ينفعك إلا طريق الولاية، والله اختبرك فكسر في نفسك الكِبر ولا تعود إليه. فأنا أعطيك العهد.

– أغثني بها يا سيدي.

– لكن شرطي أن أزوجك بنتي **ميمونة**. أنا ربي كلمني أنها لن تنجب ذكرًا ولا أنثى. والرجال لا يصبرون على امرأة لا تلد. أزوجها لك بعهد الله ألا تطلقها ما حييت، وتكرمها ما بقيت.

– قبلت يا شيخي.

– مُدَّ يدك يا ولدي تأخذ العهد.

ورث عن شيخه الولاية وكمال العرفان. ما عادت تُرَدُّ له دعوة. يمشي على الماء، ويبرئ السقيم، ولا تلدغه عقرب، ولا ينزل على جسده الطاهر ذباب. ويأتيه الكشف من الله على فترات.

ناداه منادٍ يسمعه ولا يراه:

– يا شيخ محمد، لو سلِم قلبك من ناحية الفقير **عبد المحسن** لملكت علم الغيب وإحياء الموتى.

حاول أن يشفي قلبه، لكنه ما قدر إلا على شيء من النسيان. وكلما استيقظ صباحًا وحاول النظر في صحف الغيب فما رأى شيئًا، علم أن قلبه ما زال به ما به.

حتى أتته **حُسنة** تسعى.

بعد نحو خمسين سنةً من الكراهية. تبدلت فيهن البلاد وتغيرت الديار. باد ملك الفونج وجاء الباشوات. نشأت أممٌ وهلكت أختها. رفع الله أقوامًا

وخفض آخرين. لكن الشيخ **عبد المحسن** ود **حمد** واصل الارتفاع.

دعاه الباشا مع جماعة من الفقهاء ليسألهم عن حكم مصادرة أرض ملوك الفونج؛ فأفتى كل الفقهاء بحرمة ذلك وأنه لا يجوز للباشا أخذها إلا بحقِّها. أما الشيخ **عبد المحسن** فخالفهم. قال إن الأرض كانت دار النوبة وغصبها الفونج. والآن ذهب ملك النوبة والفونج، فيحل للباشا أخذها والتصرف فيها كيف يرى مصالح العباد.

خشي الباشا أن يستجيب لفتوى شيخ وحيد، فبعث إلى مصر يسأل سيده ويستفتي شيوخ الأزهر. وما هو إلا شهر حتى أتاه الرسول يحمل أمر المُعظَّم أن يمضي في المصادرة، وفتوى الأزهر أن الأرض تحل له بعد أن غصبها الفونج من أهلها. وحملت فتوى الأزهر في ذيلها:

– الشيخ البربري الذي أفتاك لا يكون إلا عالمًا مبصرًا بدقائق الشرع ويحسن التوقيع عن رب العالمين.

ضحك الباشا سرورًا وردَّد:

– مظبوط.. مظبوط. الشيخ **عبد المحسن** يوقع عن رب العالمين.

فعلا نجم الشيخ **عبد المحسن** وارتفع، وناله من رضا الباشا أعظم من رضا ملوك الفونج. حتى ركن إلى الدعة وما عاد يجلس للدروس. إنما ترك ذلك لكبار تلاميذه. ولا عاد يحرص على صلاتي الفجر والعصر، فينام عنهما ما بال الشيطان على أذنيه. لكن صيته ما قلَّ ولا فتر، وما ذكر

عنه الناس إلا إنه سلطان الفقرا وأهل الله. يخشاه الشيوخ والأمراء قبل العامة. إلا الشيخ **محمد ود** دياب، فما كان يخشاه ولا يحسب لمكانته حسابًا. وبينهما من الكراهية القديمة ما لا يذكر له سببًا إلا قلة.

فالآن كل هذا يعود لأجل **حُسنة** وانتقامها.

قالت **ميمونة** بنت الشيخ **خوجلي** لنفسها:

– ما ذاك الصداق الذي سيضيع مهابة الشيخ محمد؟ أهو ذقن الباشا أم تشريفة الحاكم؟

بثت سؤالها للشيخ **محمد ود** دياب لما رجع بعد ساعات. أمسكت به **ميمونة** قبل أن يدخل حجرة **حُسنة** بشوقه. دخلت به حجرتها وأغلقت الباب. كان قلقًا مما تريد. لا يقدر أن يسمع أية شكوى من سلوك زوجه الصغيرة. يريد أن يدخل إليها فيطفئ شوقه الملتهب. كان متلهفًا كصبي. حبها به كهوس أجربٍ بالهرش. قال لـ **ميمونة** بصبرٍ نافد:

– أجِّلي ما لديك إلى الصباح. جئت من سفر طويل وأنا متعب.

– يا سيدي أتى **المضوي** وأنت غائب.

هتف:

– رجع؟

– نعم. جاء يحمل إليك ردًّا من الشيخ **عبد المحسن**.

مدَّ يده إليها وقال:

– هاته.

– لم يكتبه يا سيدي. بل ألقاه إليه شفاهة.

– ماذا قال؟

– أخبرني أولًا بصداق **حُسنة** الذي كتمته عني.

– ما كتمت عنك شيئًا. أنا أخبرتك كل خبرها.

– لكنك لم تخبرني بقيمة صداقها الذي سيجر علينا ما نحن في غنًى عنه. كم هو؟ إن كان شيئًا يمكننا دفعه لها فلنفعل ونتقي شرَّ النزاع.

– الحق حق يا **ميمونة**. كثر أو قل. والحق لا يدفعه إلا من سلبه.

قالت متوسلة:

– أخبرني فقط كم هو، ثم نقرر بعد ذلك.

قال بصدق:

– وحقِّ أبيك، وحقِّ الشيخ الجيلاني لا عرفت ولا سألت. إنما هو حق **حُسنة** أجبرها أن تنزل عنه ليطلقها. وما كنت لأردَّ صاحب مظلمة ولو في خيط دمور.

قالت في ألم:

– بل ما كنت تترك حقَّ **حُسنة** ولو كان بصقة في كف.

– لا أحب أن أسمع هذا الكلام.

– وما كنت تترك ثأرًا عند الشيخ **عبد المحسن** حتى الذي يحول بينك والكمال.

– لا أحب أن أسمع هذا الكلام.

– يا سيدي لو طبت نفسًا لوهبك ربك ما تتمنى. فمذ كم وأنت تطلب إحياء الموتى وعلم الغيب ويردُّك ربك؟ فلماذا تفسد على نفسك كمال الولاية بصغير أمر الدنيا؟

– لا أحب أن أسمع هذا الكلام يا **ميمونة**، فحسبك. قولي ما أخبرك **المضوي**.

أعادت على مسامعه ما أتاه من غريمه. نطقته ببطءٍ كأنها ترجمه به حرفًا حرفًا.

الشيخ كان يتلوى مع كل كلمة يسمعها. ثم انتفض صائحًا وقد طاش صوابه:

– أقال يخرجني من مسجدي ككلب السقا؟

– هكذا نقل **المضوي**.

– دعيٌّ قريش يهددني! هذا الذي لا يعرف نسبه ويدعي الشرف يتوعدني أن يخرجني ككلب السقا؟ لا أصبحت إن بات في مسجد الباشا.

قفز إلى باب الحجرة ففتحه وأفلت خارجًا. جرت **ميمونة** خلفه تناديه، لكنه دخل حجرة **حُسنة** مسرعًا وأغلق الباب. وقفت أمام الباب تطرقه، وتناديه متلطفة:

– اهدأ يا سيدي. تعالَ كلمني لنفكر.

لكن صوته أتاها من وراء الباب يقول بغلظة:

– ارجعي إلى حجرتك يا امرأة. مضى أمر الله.

– يا سيدي!

انفتح الباب فهمَّت بمواصلة الكلام، لكنها رأت **حُسنة** تسد الفرجة. قالت لها في جفاء:

– الشيخ متعب فدعيه الآن.

تراجعت **ميمونة** إلى الوراء وحاولت النظر من خلف جسد **حُسنة** الذي يسد الباب. صاحت بعلو صوتها لأول مرة منذ تزوجت:

– يا سيدي. أمرٌ مرَّ من خمسين عامًا. أخطأت فجبر الله خطأك وغفر لك؛ فدع ما حدث.

أزاح الشيخ محمد حُسنة عن الباب وبرز إلى **ميمونة** صارخًا:

– وحقِّ أبيك لأصيبنَّك بدعوةٍ لا تخطئك. لا تعودي إلى ذكر ذلك.

– يا سيدي!

– المرأة الصالحة لا تخذل زوجها. لا تُخطِّئه. قلبي ساخط عليك يا **ميمونة بنت خوجلي** ما بقيت.

وقبل أن تجد فرصة للكلام تراجع إلى الحجرة وصفق الباب بقوة. ثم سمعت صوت الرتاج الخشبي يُغلَق بعنف.

رجعت إلى حجرتها مذهولة. لأول مرة ترفع صوتها على زوجها لبضعٍ وأربعين عامًا.

تزوجها وهي في الثانية عشر من عمرها. أتاها الحيض وهي في كنفه. وفي أول ليلة رأت الدم فُزِعت وخشيت أن يغضبه ما نزل منها. لكنه احتضنها في سرور وقبَّل رأسها قائلًا:

– يا حبيبتي من اليوم ستكون الحياة غير الحياة.

أحسن معاشرتها وعرفته رجلًا لينًا طيبًا لا يقول إلا خيرًا. ما سمعته يدعو بشرٍّ على أحد قط. كان إن أتاه مظلوم يطلب منه الدعاء على من ظلمه يبتسم ويقول:

– فهل لك في خير من ذلك؟

ثم يدعو للظالم بالهداية، وللمظلوم بالإنصاف وشفاء الصدر.

كيف تحوَّل الولي السبعيني إلى غلام نزق يعميه الانتقام عما سواه؟ أي شر بثَّته تلك الصبية **حُسنة** في الشيخ مستجاب الدعوة؟ الرجل الذي يمشي على الماء غرق في بحر **حُسنة** بنت **قنديل!** من أي باب شر دخلت الصبية حياتنا؟

شهقت وصاحت:

– لا إله إلا الله! ما هذا الشر الذي أفكر به.

استغفرت ربها مرارًا حتى هدأت. مسحت دموعًا سالت على غفلة منها. قالت لنفسها:

– البنية مسكينة. صغيرة ونزقة. لم تكسبها الأيام حكمة بعد. وما عرف قلبها درب الله. حاجتها لدعاءٍ صادق أكثر من استحقاقها للعتاب.

جرَّت ثوبها ولفته حول رأسها. مشت نحو فروة الصلاة ووقفت بين يدي الله. نوت أن تصلي لله ليلتها وتدعو لضرتها في سجودها. تطلب من الله أن يهدئ سرَّها ويزن طيشها.

وكانت **حُسنة** في حجرتها تغوص في ذاك الطيش إلى مداه. صاح بها الشيخ **محمد ود دياب**:

– هاتي لي فروة الصلاة.

فجـرت دون أن تمـسَّ قدميهـا الأرض تحضرها مسـتبشرة. قالت في سعادة:

– ستدعو عليه يا شيخ؟

– لأصيبنَّه بدعاءٍ يتصاغر جواره دعاء نوحٍ على قومه.

زغردت بصوتٍ خافت وملأت ابتسامتها وجهها وهي تفرش الفروة:

– بارك الله فيك. يا جابر كسر المُستضعَفات.

وقف الشيخ محمد على الفروة بعجلٍ وقلبه يصخب بالغضب. وما إن كبَّر الله حتى غاب عن الدنيا. طارت من حوله جدران الغرفة واختفت **حُسنة**.

رأى نفسه بوادٍ مجدب، ما به إلا شجيرات طندب يابسات. هتف:

– يا رحمن يا مغيث. برحمتك أستغيث.

سمع المنادي يناديه من خلفه:

– يا محمد ود **عيشة**.

التفت منزعجًا فما رأى مناديًا. صاح:

– أنا الشيخ محمد **ود** دياب.

لكن الصوت أتاه من خلفه:

– يا محمد ود **عيشة**.

استدار مسرعًا فما رأى أحدًا. صاح:

– أنا الشيخ محمد **ود** دياب، تاج العارفين.

– يا محمد ود **عيشة**.

التفت خلفه لكنه ما رأى أحدًا.

– أنا الشيخ محمد **ود** دياب، سراج الأولياء.

– أناديك باسمك الذي تُنادى به يوم القيامة، يوم يُعرَض عمل الخلائق.

نظر ناحية الصوت فرأى الخضر عليه السلام بعيدًا بين السماء والأرض.

– يا صاحب المنزلة! أيها العبد الصالح! العبد المسكين محمد بين يديك.

قال له الخضر:

– أنت يا محمد ود عيشة تريد أن تدعو ربك دعاءً ما دعاه نوح على قومه؟

– يا سيدي أنا أغيث المظلوم.

– يا محمد ود **عيشة، عبد المحسن** عبد ما لك به قدرة.

– أطلق يدي يا سيدي.

– يا محمد ود **عيشة**، **عبد المحسن** عبد ما لك به قدرة.

– امنحني دعوتي يا سيدي.

– يا محمد ود **عيشة**، فإن نلت دعوةً على **عبد المحسن** يحرمك ربك بعدها الاستجابة.

صاح بلا تردد:

– قبلت يا سيدي.

صمت الخضر. وقف الشيخ محمد يعلق بصره به ينتظر ردَّه.

– امشِ معي.

فُوجئ بالخضر إلى جواره يكلمه. مشى معه صامتًا.

قال الخضر:

– أنا مأمور بأن أسألك. هل تريد أن تدعو عليه بالغرق أم الحرق أم المرض؟

صرخ الشيخ محمد في جنون:

– الحرق. نار كنار قلبي.

– كذلك أخبرني ربي.

لم يعرف كم مشى ولا إلى أين في جدباء ممتدة، حتى وقفا على عين ماء. قال له:

– ادعُ دعوتك، ثم اشرب من هذه العين تطفئ نار قلبك. بعدها لا تكون في قلبك لـ **عبد المحسن** موجدة. وبعدها لا تكون لك عند ربك دعوة مستجابة.

– ودعوتي على **عبد المحسن**؟

– تحصل قبل الفجر.

رفع الشيخ كفيه هامًّا بالدعاء، لكن الخضر أشار له.

– انتظر حتى أذهب.

نظر إلى عينيه مليًّا. قال:

– أراك عند حوض النبي يا محمد ود **عيشة**.

ثم ذهب.

المرة الأخيرة التي يلتقي فيها الخضر. لن يراه بعدها. ما أحسَّ بتلك الفاجعة إلا حين استفاق وألفى نفسه جالسًا على فروته وقد ألقى السلام من صلاته. **حُسنة** تقف عند رأسه. وجهه مُبلَّل بالدموع التي تسيل على لحيته. وفي فمه طعم الماء كشهد الجنة.

قالت له جذلة:

– تقبَّل الله منك يا شيخ محمد.

– تقبَّل الله يا **حُسنة**.

سألته في نهم متوحش:

- بمَ دعوت ربك؟

- أن يُسلِّط عليه النار فيجعله آية.

- وقاك الله شر النار يا سيدي.

قام من فروته متكاسلًا. استند إليها وقال:

- قوديني إلى الفراش. لا أجد قدرة للوقوف.

أمسكت ساعده واحتوته بذراعها وذهبت به ناحية الفراش. تمدد عليه منهكًا. قال وهو يلهث:

- سأنام ما شاء لي ربي. لا توقظيني.

- صلاة الفجر يا سيدي.

- ليقضِ الله أمرًا كان مفعولًا.

نام الشيخ **محمد ود** دياب نومًا طويلًا بلا أحلام. أغمض عينيه. أحسَّ بمرور الزمن ثقيلًا كريهًا على روحه. لكنه لم يرَ سوى الظلام التام. وحين فتح عينيه كانت الشمس قد قاربت الزوال. نهض متثاقلًا. قال لـ **حُسنة**:

- خذيني إلى حجرة **ميمونة**.

لم تجادله. أعانته ومشت به إلى الحجرة الأخرى. فُزِعت إليه **ميمونة**. تناولته منها وهي تردد:

– لا بأس عليك يا سيدي. ما فيك بالجبل. ما فيك بالخلاء والحجر.

– قوديني إلى الفراش يا **ميمونة**. أنا متعب.

ارتمى على فراش **ميمونة** وسالت دموعه في صمت. لم يقدر على النهوض لدرسٍ ولا صلاة. حتى حاجته بات يقضيها في مكانه بمعونتها. أربعة أيام مرَّت، احتجب عن تلاميذه وحيرانه. أوصى **المضوي** بالتدريس. وفي اليوم الخامس جاء الخبر من المدينة.

حمله العابرون كشائعةٍ في أول النهار، ثم أكده غيرهم في منتصفه. وبعد المغرب جاء آخرون باليقين.

دخل **المضوي** بالحكاية إلى سيده. وقف بين يديه، وخلفه تقف **ميمونة**. أما **حُسنة** فقد علمت أن في الأمر شيئًا فجاءت متسللةً ووقفت غير بعيد تسمع.

قال **المضوي**:

– قالوا يا سيدي إن الشيخ **عبد المحسن** ود **حمد** نام قبل أيام دون أن يطفئ السراج، فبعث الله فأرة فضربته بأمر الله. انكفأ السراج والشيخ نائم.

قطع **المضوي** حديثه. نظر إلى شيخه ساكنًا يسمع كأن الأمر لا يعنيه. فقط أومأ بعينيه وأشار له أن أكمل.

قال **المضوي**:

– شبَّت النار في حجرته. وأمسكت بزينة القماش والكتب. سمع الفقرا هسيس النار ورأوها من خلف الخشب فاندفعوا لنجدته. كسروا الباب، لكن النار حجزتهم خارجًا. من بين اللهب رأوا الشيخ **عبد المحسن** يصرخ والنار ممسكة بثيابه. كان يصرخ حزنًا على كتبه النوادر. صاحوا به وقد فرحوا أنه بعد حي. نادوه ليأتي ناحية الباب. لكنه ظل يصرخ حزنًا حتى غيَّبته عنهم النار والدخان. هُرِعوا بالماء لكن الحريق كان يعجزهم مغالبة. ما قدروا أن يفعلوا شيئًا حتى ظهر الصباح وهدأت النار بعد أن أتت على الحجرة وما بها من كتب.

صاحت **حُسنة** من خلفه بلهفة:

– والشيخ **عبد المحسن**؟

صمت **المضوي**. وقالت **ميمونة** بوجع:

– رحمه الله.

– ليرحمنا الله جميعًا يا أم الفقرا. للخبر بقية.

– ماذا حدث؟

ابتلع **المضوي** ريقه، وقال في خفوت:

– في الصباح، حين هدأت النار، مشى إليهم من وسط الرماد الأسود الشيخ **عبد المحسن** سليمًا كمئذنةٍ جديدة. ما مسَّه من النار إلا شيء يسير في طرف ثوبه. خرج حزينًا لا يقول إلا «لله الأمر. ضاعت كتب الفقهاء ومحصول المحدثين». كان يحمل في يده كتيبًا صغيرًا ما بقي غيره من النار. رسائل الحلاج الحسين بن منصور. أما الفقرا فطاش بالسرور عقلهم. وذاع الخبر في المدينة، وأتاه أهل الله عجلين فألبسوه المرقَّعة بأمر الخضر.

رفع الشيخ محمد بصره بحدة. بدا مصدومًا. قال بصوتٍ واهن:

– الخضر أمر بإلباس **عبد المحسن** ود **حمد** مرقَّعة الصوفية؟

– وقال أهل الله إنه خليل الله أنجاه من النار.

– **عبد المحسن** ود **حمد** خليل الله؟

اندلق على الحجرة صمت قاسٍ، كأنها البلد الحرام وقد فرغت الأبابيل من رمي جيش الفيل. سكون تام. أطبق الشيخ محمد **ود** دياب يديه على صدره. قال:

– ربنا يبارك له.

وأشار لهم أن اخرجوا.

فرَّت **حُسنة** إلى حجرتها. ورجع **المضوي** إلى المسجد. وجلست **ميمونة** على الأرض عند باب الحجرة تنتظر أمر زوجها.

لكنه مات في صمت عند الفجر.

ذهبت روحه في هدوء. ولم يحضرها أيٌّ من أهل الله الأحياء أو الأموات. وحده حمل أعماله ومضى إلى ربه. ما معه سوى سبعين عامًا وولاية انقطعت.

كان آخر ما قاله دون أن يسمعه أحد:

– أراك عند حوض النبي أيها العبد الصالح.

لم يعلم به بشر إلا حين تسللت **ميمونة** على أطراف أصابعها ظهرًا لتطمئن عليه. صرخت حتى أسمعت المدينة البعيدة. فُزِع الفقرا في مسجد الباشا. لكن الشيخ **عبد المحسن** إمام الأولياء قال لهم في حزن:

– اثبتوا. هذا عبد من عباد الله ذهب.

ثم رفع كفيه:

– سلوا لأخيكم محمد **ود** دياب العافية، فإنه يأتي ربه وحده.

أتمَّ الدعاء ثم نهض قاصدًا بيت الشيخ محمد في موكب من الأتباع. وكان كلما مرَّ بمكان خرج الناس يتبركون به ويتبعونه. حتى دخل باحة المسجد القديم في أمَّة من الناس، لا يعرف بعضهم بعضًا، ولا يعرفون من الميت.

دخل على أهل البيت فوجدهم قد كفَّنوا ميتهم وينتظرون الخروج به

عقب صلاة المغرب. فعزى **ميمونة** بنت الشيخ **خوجلي** قطب العارفين، مرشد السالكين، منقذ الهالكين، الواصل إلى الله والموصل إليه، علم المهتدين ومظهر شمس المعارف. وبعده جاء إخوتها في بنيهم والحفدة والأسباط. فسلموا عليه بالولاية وقلَّده كل واحد من السبعة سبحة لالوب ألفية.

حتى إذا صلوا المغرب وهو إمامهم، حملوا الميت إلى قبره. أنزلوه والشيخ **عبد المحسن** يقول:

– العبد المسكين محمد **ود** دياب يأتيك يا رب وحيدًا من شفيع أو حسيب. اللهم فارفق به.

فلما تمَّ الدفن قرأ الفقرا القرآن على قبر من كان شيخهم سبع مرات. وكبَّر عليه الشيخ **عبد المحسن** إحدى عشرة مرة، وتلا يس. ثم وقف على رأسه وقال:

– يا محمد ود **عيشة**، قل لا إله إلا الله تنجو. يا محمد ود **عيشة**، قل محمد رسول الله تنجو. يا محمد ود **عيشة**، قل ديني الإسلام تنجو. السلام عليك يا محمد ود **عيشة**، فقد كنت صاحب طريق جهلناه، فهدانا الله وابتلاك.

ثم طلب من أبناء الشيخ **خوجلي** السبعة إذن الانصراف، فتسابقوا بين يديه يدلونه على الطريق. فرجع في جمهرة أعظم مما جاء بها. تحفُّه الرايات، ويمشي بين يديه الغلمان يدقون الطبل، ويتبعه الخلائق. وما رجع إلى بيت

الميت سوى قلة من العجزة ما قدروا اللحاق بالولي الصالح. ورجع معهم **المضوي**. دخل على **ميمونة** فوجدها وحدها وقد لبست ثوب الحداد. ألقى عليها السلام حزينًا. سألها إن كان ينقصها شيء، لكنها لم تجب.

منع الدمع أن يسيل على خديه والتفت ليذهب. لكنها نادته.

– لبيك يا أم الفقرا.

– شيخك راح يا **المضوي**. وأنت ما عاد لك بقاء هنا، ولا أنا لي عليك أمر.

قال بحرارة:

– يا أم الفقرا أنت ستنا ونورنا ما بقيت الدنيا.

– لي عندك طلب وحيد يا **المضوي** لا أسألك بعده شيئًا.

– ألبيه يا أم الفقرا قبل أن أعرفه.

أشارت إلى غرفة **حُسنة**.

– **حُسنة** بنت **قنديل**. مسكينة، ما لها أحد هنا، ولا تطيب نفسي لرؤيتها. تأخذها فتعبر بها بحر النيل عند الحلفايا، وحيث تأمرك فاذهب بها. وقل لها تأتينا بعد انقضاء العدة لتحصل على ميراثها.

– أفعل يا أم الفقرا.

ما تردَّد لحظة. حتى إنه ما استشار **حُسنة**، بل أمسك بها بغلظةٍ وأمرها أن تمشي أمامه. بصعوبةٍ توسلته أن تجمع شيئًا من حاجياتها فقبل. حملت ما استطاعت ومشت خلفه إلى الزريبة. أطلق الحمار الذي منحه إياه الشيخ **عبد المحسن** قبل أيام. ركب وأردفها خلفه وسار.

كانت **حُسنة** تبكي في صمت أول الطريق. ثم أحسَّها من خلفه تمسح دموعها. قالت له:

– يا **المضوي!**

لم يردَّ عليها.

كرَّرت النداء فتجاهلها ثانية. صمتت. طلعت عليهما القمرة. بيضاء حزينة كحالة. نبحهما كلبٌ ما فهشَّه **المضوي** قائلًا:

– جر. يحبسك حابس الحوت.

بدأت حُسنة تتكلم:

– يا **المضوي!** اسمع مني ولا تجبني. شيخك **محمد ود** دياب راح. ما بقي من العز القديم شيء. حتى في موته ما مات كما يليق بالأولياء. فمن سيعرفك اليوم أو يقبلك عنده وأنت نجيب لوليٍّ ما عاد كذلك؟ هل ترضى لنفسك أن ترجع تلميذًا صغيرًا عند **عبد المحسن** ود **حمد** أو أحد إخوة **ميمونة؟**

صكَّها بصمته. لكنها واصلت:

– يا **المضوي** أنا ما زولة شر. أنا ما أريد إلا الخير لي وللناس. وهذا الكلام لا أقوله لك إلا لأني أريد لك الخير مثل أخي. أنت نجيب زوجي وكان يحبك كما لم يحب أحدًا.

اختلج صدر **مضوي** بذكر محبة شيخه. أحسَّ بنار الفقد تكوي جوفه. سألته **حُسنة**:

– هل يرضيك أن تسيء إلى الشيخ محمد في قبره؟

– أموت ولا أسيء لسيدي الشيخ.

تنهدت **حُسنة** وقالت:

– فماذا تقول له حين يسألك عن زوجته **حُسنة**؟ أتقول له رميتها في الخلاء عند الأغراب وذهبت؟ يا **المضوي**، أسألك بحقِّ الشيخ محمد هل كنت تعلم أنه يحبني؟

صمت قليلًا، ثم أجاب على مضض:

– أعلم.

– وأنا أعلم أنه كان يحبك. فأنا وأنت آخر من أحب وكان يهتم لأمرنا. فبالله عليك كيف تقول لحبيبك حين يسألك أنك تركتني وذهبت وأنت تعلم حبه لي؟ أتراه يرضى عنك؟

قال في عصبية:

- كل ما حلَّ بسيدي بسببك!

- بل كان الشيخ يحبني ويستخف بأي ثمن لقاء رضائي. فإن كانت هذه محبته لي، أتسيء أنت إلى من يحبها شيخك؟

تلفت حوله محتارًا. بحر النيل ظهر أمامهما يترقرق في الظلمة.

- ماذا تريدين؟

- تذهب معي يا **المضوي**. أنا أرملة ضعيفة. لا أعرف أحدًا في الدنيا إلا من تركت ورائي. ماذا أفعل في الحلفايا أو غيرها؟ من يصد عني عوادي الزمن؟

- أليس لك أهل؟

- لو كان لي أهل ما تزوجت شيخين.

زام **المضوي** في عدم رضا، فاستدركت:

- أنا لا أعيب على الشيخ محمد. كان رحمه الله حنونًا محبًّا. وحقِّ سيدي الجيلاني أنا أيضًا أحببته كما أحبني. لكني أسألك الآن، وأنت نجيبه الأقرب، أن تخدمني بحقِّ هذه المحبة.

- تريدين أن أسافر معك؟

– نعم! نذهب إلى سنار. هناك الناس أخلاط. لا يعرف أحدٌ أحدًا. منذ جاء الباشوات تبدل حال البلاد. سنزعم أنك أخي حتى يسهل أن نقيم معًا. وندبر رزقنا.

وصلا المشرع على بحر النيل. أنزلها عن الحمار. أمسك خطامه لبرهة، ثم تركه وهشَّه. صاح به:

– عر! عر! ارجع. ارجع.

استدار الحمار. مشى لخطوات، ثم بدأ يعدو مبتعدًا. ابتسمت **حُسنة** في الظلم. قال لها:

– من أين ندبر رزقنا في مدينة غريبة؟

– ألا تحسن صنعة؟

– أحسن أكثر من صنعة.

قادها إلى مركب جانحة على الشط في يتم. أخذ يدفعها بجهده و**حُسنة** تقول له:

– فأنت تعمل وتكفلنا إلى أن أجد أنا سبيلًا لتدبير أمرنا.

استقرت المركب فوق الماء. قفز داخلها. مدَّ يده إلى **حُسنة** فأمسكتها وخطت محاذرةً داخل المركب. بدأ يجدف. الموج هادئ كنائم. يقلقه مرُّهما عليه، فيتململ لعبورهما ثم يستكين.

قالت له:

– أنت تستحق محبة الشيخ محمد يا **المضوي**.

– كم كان صداقك الذي أكله الشيخ **عبد المحسن**؟

– هذا أمر مضى يا **المضوي** فدعه.

– أريد أن أعرف.

فكّرت قليلًا ثم صارحته:

– دينار واحد.

– دينار؟

– دينار! أنا ما كنت طامعةً في مال يا **المضوي**، لكن **عبد المحسن** أذلني لأني بلا سند. أنا وحيدة في هذه الحياة. لو كان لي أهل لطلقني ودفع لي صداقي، وإن كان ذهب جبال شنقول.

ضحك **المضوي**. قهقه بعلوِّ صوته في جوف النيل. كرَّر:

– دينار واحد؟

– يا **المضوي** الدينار كان يساوي كرامتي. يساوي أماني. كان يساوي قدرتي على حماية نفسي والانتقام ممَّن ظلمني.

جدَّف في صمت. كان يبتسم ويهز رأسه في تعجب.

وحين وصلت المركب منتصف بحر النيل هبَّ واقفًا فجأةً وصاح:

– الحين يجي الغرق. يا راكب الموج قول الشهادة. الحين يجي الغرق.

فُزِعت **حُسنة** بنت **قنديل**. صرخت وحاولت التشبث بحوافِّ المركب.

لكن **المضوي** كان يهز المركب بجنونٍ ويصرخ:

– الحين يجي الغرق. الحين يجي الغرق.

وابتلع الظلام صرخات المرأة.

* * *

لکل عام خریف

قرب منتصف شهر أغسطس، كان بحر النيل ما زال صاخبًا يعربد.

يفور في مجراه ويسمعه أهل القرية يزمجر ليلًا. يعرفون علامات الفيضان بتعكُّر الماء وصخبه، وبهياج السوداء على المجانين.

يصبح لون بحر النيل طينيًّا تتصارع فيه الدوامات ويتطاول حتى يتدفق خارج المجرى، ويحمل كل عام جثث الأشجار سيئة الحظ والجثامين المنتفخة للغرقى المجهولين من قرًى بعيدة. ويُصاب المجانين، الذين عادتهم الهدوء، بالصخب والعويل.

في بداية هذا الخريف، وقف **جيب الله** المجنون أمام مدرسة البنات بجلبابه المتسخ الذي يستر عورته بمعجزة. رأسه ضخم كرأس ثور، وجسده نحيل يرفرف الجلباب عليه. لم يكن هادئًا كما هي عادته. عابثه العابرون من بعيد وهم يضحكون، لكنه تجاهلهم في تصميم. كان متوترًا

ينقل قدميه في مكانهما وعيناه تدوران كأنما تبحثان عن طريق للخروج من وجهه.

كان واقفًا من أول الظهر تحرقه الشمس، وظلَّ واقفًا حتى أصبح ظله طويلًا ناحية الشرق.

حين سرى سرب الطالبات خروجًا من بوابة المدرسة، هرول **جيب الله** نحو إحداهن.

نعيمة ابنة **الزبير** تاجر البلح فُوجِئت بـ **جيب الله** يمسك معصمها ويصرخ:

– أنا بحبك. حبيتيني حبيتيني. ما حبيتيني على كيفك!!

ثم عوى في وجهها ككلبٍ مسعور وجرى مبتعدًا تاركًا الفتاة في باحة الذهول.

حين سمع أهل القرية بهذه الحادثة قالوا في تسليم:

– إنه الخريف. النيل يعلو.

جيب الله لم يظهر مرةً أخرى. و**نعيمة** لم تترك باحة ذهولها.

آخر من رأوه قالوا إنهم لمحوه يجري نحو الخلاء. كان ينادي بصوتٍ حاد:

– يا الله هووووووي.

ناداه بعضهم:

- يا **جيب الله!!** يا **جيب الله!!**

لكنه كان يجيب:

- بركة البحر والبحور وستي فاطمة بت الرسول!!

كانت هذه آخر مرة يراه فيها أحد بيقين. مع أن بعض الناس خُيِّل إليهم أنهم رأوه في حوادث أخرى متفرقة.

لم يهتم أحد بالبحث جديًّا عن **جيب الله**؛ فهو فعليًّا بلا أهل. كل أقاربه فتح الله عليهم بالتعليم فانتقلوا إلى العاصمة موظفين في مكاتب الحكومة. لم يكن له قريب في القرية إلا شقيقه **جابر**. ولم يكن لـ **جابر** من الأسباب ما يدفعه إلى البحث عن **جيب الله**، بل على العكس.

جيب الله كان كبقية أقاربه قد نال حظًّا من تعليم أهَّله للسفر إلى العراق. غاب لسنوات، ثم عاد يحمل مرضًا نفسيًّا وقدرًا من مدخرات. فاستولى **جابر** على المدخرات ليتزوج بها ودفع **بجيب الله** إلى الجنون الكامل.

كان **جيب الله** لطيفًا طول العام. يمشي في شوارع القرية يغني:

«يمّه أنا زولي ما جا

يا يمّه أنا زولي ما جا

من العراق مالو ما جا يا يمّه

ده العقد وزاغ يا يمّه»(*)

بعض الناس وجده في جنونه لطيف المعشر حلو المؤانسة أكثر مما كان في عقله.

لكن حاله يسوء مع فيضان بحر النيل. في مرة هجم على زوجة أخيه التي ترعاه. حين أنقذها الناس استجابةً لصراخها وقد أوشك أن يطعنها بوتده، قال ردًّا على توبيخهم:

– أنا دافع فيها.

فيقول الخبثاء من الناس:

– خذوا الحكمة من أفواه المجانين.

مع كل فيضان ترتكب سوداء **جيب الله** مصيبة؛ فيثور **جابر** ويسبه ويقيده إلى عامود خلف البيت. ثم تشفق عليه زوجته وتطلقه ليهيم في شوارع القرية يغني للذي سافر العراق وما عاد.

مع هذا الفيضان، هاجم **جيب الله نعيمة** ابنة **الزبير** أمام المدرسة. أرعبها، ثم اختفى.

(*) يا أمي لم يأتِ حبيبي. يا أمي لماذا لم يأتِ حبيبي؟ من العراق يا أمي. إنه الذي تزوجني وهرب.

حمد **جابر** الله، وتوعد **الزبير** أن يقتله إن رآه.

لكن الناس قالوا له:

- المجنون في ذمة الواعي.

لم يظهر المجنون مرةً أخرى، فتبخَّر غضب الواعي.

ولم يبقَ من فعلة **جيب الله** إلا ذكرى طريفة يضحك الناس إذ يتذكرونها. لكنهم سرعان ما يستدركون بما أصاب **نعيمة** فيعجبون ويرثون لها.

لم تغادر **نعيمة** باحة الذهول قط. ظلَّت هناك يحوطها الرعب.

الفتاة، ذات الخمسة عشر عامًا، الجميلة كبرتقالة، لم تعد كما كانت.

كثيرون حلموا بها زوجة، لكن **الزبير** كان يستمهلهم أن تكمل المدرسة. ربما كان يحلم لها القدر من هو أفضل من مزارع. لكنها -بعد أن هاجمها **جيب الله**- لم تعد صالحةً للأحلام. ذبلت وتساقط عنها النوَّار.

اسودت وجنتاها وسكنت عينيها نظرة ذهول لا تبرح. آوت إلى غرفة مظلمة في بيت أبيها تبكي في صمت، وتصرخ إن أحست بصوتٍ قادم. لا تأنس إلا إلى الظلام. وتحادث الظلال التي يرميها شعاع القمر إذا اكتمل.

أمها كانت تدس في فمها الطعام، وتقرأ عليها سورة يس وتحرق البخور، وتتقي شماتة الجارات.

لكن **نعيمة** ظلت هناك.

أسِنت روحها كجثةٍ تعفنت.

كرت الأيام وما غادرت **نعيمة** الغرفة ولا الذهول. قال الناس إن لكل قرية مجنونًا. غاب **جيب الله** بعد أن سلَّم الراية لـ **نعيمة**.

ذهب الخريف وهبط النيل. جاء شتاء قاتل، ثم أعقبه صيف حرَّاق.

وترقب الناس الخريف الجديد بفيضانه.

حين سمعوا **نعيمة** تعوي في غرفتها المظلمة، عرفوا أن بحر النيل يفيض مرةً أخرى.

* * *

عندما هاجرت الداية

الطقوس الاحتفائية -التي تصل إلى حد المبالغة- في تعامل قرية **كلّرو** مع السفر، لم يهتم بها أحد في ذلك اليوم.

طقوس الوداع تبدأ بمنزل المسافر ليلًا، ثم تتواصل صباحًا عند البص. ثم العودة إلى منزل المسافر مرةً أخري ليُقال لأهله «يكتب سلامته». ثم مرةً بعدها حين يرد الاتصال الهاتفي مؤكدًا وصوله سالمًا إلى حيث يقصد، ليحمدوا وصول «خبر الخير». كل هذا لم يعبأ به أحد هذه المرة.

الجميع بدا منشغلًا غير متفرغ لمتابعة الحدث في فجر ذلك الخميس. حتى الذين تصادف وجودهم -لسببٍ أو لآخر- أمام دكان **مصطفى**، حيث يقف البص، لم يولُّوا الحدث اهتمامًا كافيًا. فيما بعد، عندما يتذكر **مصطفى** ذلك اليوم، سيقول بتعجب: «لم نرَ في ذلك أمرًا يثير الاهتمام.. الحقيقة أنه كان مدعاةً لسخرية بعضنا أكثر من أي شيء آخر».

بعض الذين وُجِدوا في الدكان ذلك الصباح لم يتذكروا الحدث. أنكر كثير منهم أن تكون **عرضو قاسي** قد سافرت.

السفر، الذي لم يكن مفاجئًا بحالٍ من الأحوال، مرَّ دون أي اهتمام من القرية. **عرضو قاسي** كانت قد أعلنت عزمها على السفر منذ أسبوع أو أكثر. شاهدها كثيرون تحزم حاجياتها وتوصي جاراتها، لكن أحدًا لم يُبدِ اهتمامًا بما تفعله. التجاهل التام والاستخفاف كانا ردَّ الفعل على إعلان **عرضو قاسي** أنها ستهجر القرية إلى الخرطوم.

قنديل الفريق، التي كانت أقرب الناس إلى **عرضو قاسي**، أوضحت فيما بعد ما خفي على كثيرين.

«ابنها **جمال** أرسل إليها لتلحق به. قال إنه ابتنى دارًا واسعة لا ينقصها إلا حضورها. رفضت **عرضو** في البداية، لكنه أصر. أكثر من الخطابات والوعود. ثم أعقبها بالتهديد والوعيد، مما اضطرها إلى الرضوخ».

هذا التوضيح لفت الانتباه إلى أمر آخر: هل كان لـ **عرضو قاسي** ابن اسمه **جمال**؟

البعض شرد يتذكر، وغرق كثيرون في الماضي. بعضهم أعلن عجزه عن التذكر، بينما تمارى لآخرين أن **عرضو** ولدت من زواج قصير طفلًا لا يذكر أحد مصيره بدقة.

لكن الخبر اليقين كان عند **منصور**.

«**جمال عبد الفارس** كان معنا حتى المدرسة الوسطى. كان يجلس جواري. صوته في الغناء لا يُجارى. تسمعه فتحسبه **النعام آدم**. كان أسود، كأنه قلب كافر. حتى أسنانه كانت سوداء نخرة من كثرة التدخين. أما عيناه فصفراوان كثمرة مانجو ناضجة».

هذا التأكيد، الذي بعث ذكرياتٍ قديمة مهتزة كأنها التهاويم في الأذهان، لفت الانتباه إلى أمر بدا غريبًا. **عرضو قاسي**، رغم المكانة التي تحتلها في القرية والأهمية التي تسيطر بها على الأحداث من حين إلى آخر، كانت تقبع في منطقة وسيطة بين الحضور والنسيان في أذهان الجميع. والآن وقد سافرت، لا يستطيع أحد أن يجزم بدقةٍ أنها وُجدت في القرية إلا من خلال الأحداث –وما أكثرها– التي ارتبطت بها. لكن شخصها ككيانٍ عاشر الناس وعاش معهم كان مهتزًّا متموجًا في الذاكرة وخاضعًا لكثير من الاحتمالات والأقاويل غير المؤكدة. يذكرون آثارها جيدًا، أما هي فلعلها كانت حلمًا زار بعض القرية وأرق عنه بعضها.

ما يذكره الجميع عنها –بخلاف اسمها ومهنتها– كان لونها الأسود وأصلها الذي لا خلاف عليه. أما غير ذلك فقد اختلفوا فيه أشد الاختلاف.

مصطفى، بحكم تعامله اليومي معها بصفته صاحب الدكان الوحيد في القرية، كان يؤكد أنها لم تكن بالطيبة التي يزعمها بعضهم. «كانت تجادل في ديونها.. كثيرًا ما كانت تنكر حسابها في الدكان وتزعم أنني أستغل كبر سنها لأشوش على ذاكرتها بذكر أشياء لم تأخذها. دعت عليَّ

بالخراب أكثر من مرة. وحلفت بأغلظ الأيمان أنها لن تشتري مني مرةً أخرى. لكنها إن لم تشترِ مني فمن أين تأتي بالسكر؟».

فيما بعد، وعندما وقعت الأحداث، تذكر **عمر** شيخ المسجد أنها استفته مرةً أو مرتين في بعض أمور الدين.

حاج **محمد الحسن** -في أثناء المحنة- تذكر أمورًا كانت تحدث في زمن بعيد. سرح محاولًا استحضارها، لكن الحياء غلب على لسانه فلم ينطق بها.

بعد كثير من الجهد، أجاب الذين يسألون عن تاريخ **عرضو**: «رحم الله الشباب ونزقه. يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدى لكم...».

أما **قنديل الفريق** فظلَّت على إصرارها أن **عرضو** كانت النعمة التي لم تشكرها القرية فزالت عنها.

الأحداث، التي وقعت بعد سفر **عرضو قاسي**، أكدت أن القرية لن تستطيع أن تنظر إلى هذا السفر بالنظرة الأولى ذاتها التي عبَّر عنها **مصطفى** مستخفًّا بقوله «سفر البن.. دق وحريق».

عرضو قاسي، الأمة السوداء القصيرة، التي لا يُعرَف لها أب على وجه التحديد على عادة الإماء في الشمال، وإنما كانت تُنسَب إلى أمها **كايداهم**، كانت القابلة الوحيدة في القرية. وضعها في القرية كان تجاذبًا

بين أصلها كخادمٍ بقيت بلا أسياد بعد انتهاء عهد الرق، ومهنتها كدايةٍ شبه رسمية.

لا يذكر أحد على وجه التحديد متى بدأت **عرضو** عملها كداية.

حاج **إبراهيم سالينتود** يؤكد أن **عرضو** كانت تمارس التوليد منذ وعي على هذه الدنيا.

في أحيان أخرى يقسم أنها من ولَّدت أمه عندما حملت به. لكن هذا القول ربما حمل الكثير من المبالغة، لأن **إبراهيم سالينتود** كان قد شهد أكثر من سبعين موسمًا لحصاد البلح.

عندما تزوجت **عبد الفارس** -من هو **عبد الفارس**؟ لا أحد يذكر- هل كانت داية؟ ما أكده **منصور** أن أحد أسباب هجرة **جمال عبد الفارس** للقرية كان سخرية بعض الشباب منه في حفل زواج، عندما تحفَّز للبطان وكشف عن ظهر أسود عريض كجذع شجرة لبخ محترقة بقولهم «العبد ابن الداية لن يصبر على السوط».

بعد كثير من الجهد والتقصي واستبعاد الروايات المبالغة، يمكن القول إن **عرضو** كانت داية القرية منذ أربعة وثلاثين عامًا. أما ما قبل ذلك فهو أمر يخضع للاحتمالات ولكثيرٍ من التكهنات والروايات غير الموثوق بها. **عرضو** كانت هي من ولَّدت **فاطمة** بنت العمدة **أحمد** بابنها **منصور**. **فاطمة** لم تنسَ قط أن **عرضو** حملت **منصور** بين يديها وهو بعد لحمة حمراء لم تستبن لها ملامح وقالت: «وجه مشرق لصبيٍّ مُظفَّر منصور».

تفاؤل **فاطمة** بكلمات **عرضو** كان السبب في تسمية **منصور** بهذا الاسم، و**منصور** يعرف جيدًا أن له من العمر أربعةً وثلاثين عامًا. فلأنه حفيد العمدة من ابنته المفضلة، كان **منصور** من القلائل في القرية الذين لهم شهادة ميلاد استخرجها العمدة بعلاقاته في اليوم نفسه الذي رُزِق فيه بالحفيد.

النظر إلى سفر **عرضو قاسي** باستخفاف كـ «سفر البن»، أي إنه سفر بلا عودة كما تذهب حبوب البن بعد قليها وسحنها، كان سببه هذا الحضور غير المحدد في الأذهان. لم تكن **عرضو** تظهر على سطح الاهتمام إلا عند اقتراب ولادة إحدى النساء. هذه الولادة، التي تحدث كل شهرين أو ثلاثة، كانت تجعل **عرضو** إحدى أهم شخصيات القرية، بل لعل الاهتمام بها يفوق الاهتمام بالمرأة الحامل. مع دخول الحمل شهره الأخير، كانت **عرضو** هي من تحدد متى ستلد المرأة والأغراض الضرورية لعملية الولادة. وكانت تسمي احتياجات الحامل لأن «الولادة معجزة شاقة يختلف تأثيرها على الجسم من امرأة إلى أخرى» كما كانت تقول. ما يتبع ذلك كان تأكد أهل الحامل كل صباح أن **عرضو** موجودة بالقرية لم تغادرها لسببٍ أو لآخر. ويستدعي هذا توفير احتياجاتها من الطعام والشاي والسعوط الذي تدمنه. يقول حاج **إبراهيم سالينتود**: «لا أحد يحب أن تلد امرأته فجأةً بينما **عرضو** غائبة تبحث عن السعوط في مكان ما».

كل هذا الاهتمام مردُّه الأول إلى مهارة **عرضو** في التوليد، بجانب أنها -وهذا سبب كافٍ وحده- كانت القابلة الوحيدة في المنطقة. أضف إلى

ذلك مقدرة **عرضو** الغريبة على التنبؤ بنوع المولود قبل وقت طويل من ولادته. وكانت تستدل على ذلك بأشياء غريبة؛ كاسوداد حلمة الثدي وحشرجة الصوت ومخالطة النفَس له. سبب آخر لم يكن يُذكَر علنًا، لكنه كان يجعل **عرضو** محل شكر كثير من الرجال وتقديرهم. ذلك كان مقدرتها على معالجة أمور معينة دقيقة بعد الولادة، دفعت **محمد أحمد صديق** لمداعبتها مرةً أمام جماعة من الناس باسم «**عرضو قاسي** عين الديك»، في إشارة واضحة إلى مدى نجاح العملية الدقيقة التي تتطوع بإجرائها على الحامل لتعيد الأوضاع إلى خطئها الأول. أما حاج **إبراهيم سالينتود** فقال في اليوم التالي لانقضاء فترة نفاس امرأته: «صدق الله العظيم.. قاصرات الطرف لم يطمسهن إنس قبلهم ولا جان»، ثم ضحك.

كانت **عرضو قاسي** تجيد إعادة خياطة النساء بعد الوضع، وتشد خيوطها حتى يصبح ملتقى هوى الرجال مجرد ثقب ضيق لا يُخرِج ولا يُولَج إلا بكثيرٍ من الألم. وكان الماجنون من أهل القرية يشبهونة بعين الديك لصغره.

عرضو رغم ذلك كانت تتراجع عن دائرة الاهتمام لتغوص في أوحال النسيان بمجرد أن تتم الولادة. **قنديل الفريق** قالت: «ذكرها الله بالخير.. كانوا ينسونها بعد أن تضع الحامل حملها.. حتى أن بعضهم -ولا داعي للأسماء- كان ينسى أن يشكرها على جهدها الذي بذلت.. بل بلغ الأمر ببعضهم -والمريب يكاد يقول خذوني- أنه نسي أن ينقدها أجرها أكثر من مرة».

تاريخ **عرضو قاسي** الطويل في القرية، الذي يتناوشه النسيان ويعترضه عدم الاهتمام، ظهر على السطح مع بداية المشكلات. صحيح أن الجميع نظروا إلى سفرها على أنه «سفر البن» في أول الأمر، ولم يكلف أحد نفسه عناء وداعها عند البص كما جرت عادة القرية، وصحيح أن الأمور سارت على ما يُرام لمدة شهر أو يزيد بعد سفرها، حتى أوشك كثيرون أن ينسوا أنها وُجِدت في هذه القرية ذات يوم، لكن من زعم أن الأمور تبقى كما هي دومًا؟

بدأت المشكلة بوفاة **سعيدة** زوجة **محمد أحمد صديق**.

سعيدة، ذات الأعوام الثلاثين، كانت تضع مولودها الخامس عندما تُوفِّيت. ما أكدته **فاطمة** ابنة العمدة **أحمد** وغيرها من العجائز أنهن وقفن عاجزاتٍ أمام آلام **سعيدة** والدماء السوداء التي كانت تسيل على الفراش. **خديجة** والدتها كانت تصرخ والدموع تملأ وجهها: «اضغطي.. الفرج قريب.. اضغطي».

الصبية -كما تدعوها **فاطمة** بنت العمدة- لم تتحمل الضغط والألم وأشياء أخرى يجهلها الجميع؛ فماتت.

فتحت عينيها ونظرت إلى المجهول وهتفت بوهن: «ووب عليَ يا يمّه»، ثم صمتت إلى الأبد.

تقول **فاطمة**: «لن أنسى أبدًا رأس الوليد الذي ظهر عندما فاضت

روحها.. كان أبيض جميل الملامح، لكن قناع الموت البارد غطى وجهه سريعًا».

الذين بكوا **سعيدة** وتناقلوا حكاية وفاتها وهي تضع مولودها وقصة الجنازة، التي كُفِّنت ورأس طفل يبرز من أسفلها، لم يتلمسوا الأبعاد الحقيقية للمشكلة إلا بعد حين. فبعد أسبوع تُوفِّيت **بلقيس** ابنة **فاطمة** بنت العمدة **أحمد** وهي تلد. **قنديل الفريق** أكدت أن سبب الوفاة هو أنهم انتزعوا الطفل من أحشائها بقوة.. «لا يدري أحدهم ما أحدثوا بداخلها. لكنهم عندما جذبوا الطفل بقوةٍ كأنه عمود بابور إنجليزي يُنزَع من مكانه، سال الدم الذي لم يوقفه إلا الموت».

هنا كان للكثيرين الحق في أن يتساءلوا: «هل كانت هذه الوفيات ستحدث لو أشرفت **عرضو قاسي** على الولادة؟».

مصطفى -مدفوعًا بفضوله القوي- سأل حاج **محمد الحسن** أكبر المعمرين في القرية عن وفيات حدثت في أثناء الولادة من قبل، لكن حاج **محمد الحسن** أكد أن هذا لم يحدث منذ كانت له ذاكرة. هل كان ذلك كافيًا لإدراك أبعاد المشكلة التي تواجه قرية **كلّرو**؟! يمكننا الجزم أن وفاة **صفية الماحي** بعد يومين وما تلاها من أحداث كان هو ما وضع القرية أمام مشكلتها وجهًا لوجه.

وفاة **صفية الماحي** -التي حدثت في أثناء الولادة أيضًا- وقعت قبل أيام من الموعد المحدد لزواج **سمية** شقيقة **مصطفى** بـ **عبد الرحيم التوم**.

القرار، الذي اتخذته **سمية**، كان بداية إدراك القرية لمحنتها. **سمية** أصرَّت على تأجيل زواجها إلى أجل غير مُسمّى. السبب الذي ذكرته لم يُجل ببال أحد من قبل، لكنها بذكره نبهت الكثيرين إلى حقيقة بديهية غابت عنهم.

قالت **سمية**: «لست مستعدةً للزواج الآن لأموت بعد عام وأنا أضع طفلًا لن يخرج إلى الحياة. إذا لم تُقدَّم لي الضمانات الكافية عمَّن سيقوم بتوليدي فإني غير مستعدة للمخاطرة بحياتي».

حاج **إبراهيم سالينتود**، الذي عدَّ هذا الكلام دليلًا بينًا على فساد الزمان وخراب أخلاق الفتيات؛ إذ يتحدثن في أمور مشينة كهذه علنًا، وجد نفسه مضطرًّا إلى الاعتراف بأن «هذه الفتاة بعيدة النظر حقًّا».

أما عندما سرت الشائعات أن **منصور** طلَّق زوجته لأنها منعته نفسها للسبب ذاته الذي ذكرته **سمية**، فإن القوم أدركوا أن الأمر حقًّا جد خطير.

المشكلات، التي انتشرت في البيوت انتشار ظلمة ليلة شتوية، لم يتطوع أحد ببحثها علنًا، لكن آثارها كانت ظاهرة. ما بدا كهجرةٍ محمومة للنساء من بيوت أزواجهن إلى بيوت الآباء، وما صاحب ذلك من وجوم على وجوه كثير من الرجال، كان يخبر بصدقٍ عن حجم المشكلة التي تعيشها **كلّرو**.

حوادث الوفيات، التي حدثت بعد ذلك لثلاث أو أربع نساء كُنَّ حوامل قبل رحيل **عرضو قاسي**، أكدت عمق الكارثة الوشيكة.

بابكر الأعرابي، الذي يفد إلى القرية كل فترة وأخرى حاملًا حاجيات النساء وما يلزمهن خصوصًا دون غيرهن، فُوجئ بما لم يكن في حسبانه. قال ذاهلًا: «للمرة الأولى منذ اثني عشر عامًا لا أبيع شيئًا. ماذا أصاب هذه القرية؟ عرضت الطلح والدلكة والبخور واللبان فلم يشترِ مني أحد. الأعشاب المقوية، التي كانت النساء يتقاتلن عليها ويوصينني بها بكثيرٍ من الحرص والتكتُّم ليقدمنها لأزواجهن خلسةً طمعًا في إطالة عمر لحظات خاصة عادةً ما تمر فاترة، لم تجد مشتريةً تنظر إليها».

وللمرة الأولى في تاريخ **كلّرو** يدخل عليها موسم حصاد البلح دون استعدادات للزواج. جرت العادة في القرية -كغيرها من قرى الشمال- أن يكون موسم البلح هو موسم التزاوج. حاج **محمد الحسن** بذاكرته المعمرة -وقد صار أحد المراجع الرئيسية في الأيام الأخيرة لمقارنة الأحداث بما سبق- يؤكد أن موسمًا واحدًا للحصاد لم يمرَّ من قبل دون زيجتين على الأقل. أما هذا الموسم فكان شيئًا مختلفًا. عزوف الناس عن الزواج بعد الأحداث كان أمرًا مفهومًا للجميع.

الشيء الذي احتاج إلى التوضيح والشرح كان الطبع الحاد الثائر الذي اتصف به أهل القرية في الفترة الأخيرة. أي خلاف صغير كان يمكن تجاوزه في الماضي أصبح سببًا للعراك والقطيعة في هذه الأيام. **منصور** -مستندًا إلى شيء من ثقافته الجامعية؛ إذ درس فصلين دراسيين بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ثم تنكبها وعاد إلى **كلّرو** محزونًا- همس لـ **مصطفى**

موضحًا بتعابير عاجزة عن إدراك المعنى: «الحرمان أقسى عقوبة يواجهها إنسان. هذه الرغبة إذا لم تجد متنفسًا تصعد إلى الدماغ فتؤثر عليه».

مصطفى، عندما حكى هذا الكلام لغيره، علَّق بخبث: «لكنه لم يذكر شيئًا عن الكرامة الجريحة لزوجٍ ترفضه زوجته».

إمام المسجد **عمر** ابن الحاج **محمد الحسن** كان أول من دعا الناس للبحث عن حل. في يوم الجمعة تلا خطبةً ذكَّرت الكثيرين بخطبة الزواج. قال إن الله جعلنا شعوبًا وقبائل لنتعارف، وإن الزواج نصف الدين. قال: «ذهب كثير من العلماء إلى أن الزواج واجب على المستطيع، وما حال دون الواجب لزمت إزالته». ثم ختم خطبته بأن نهى الناس عن التهاون، وذكَّرهم أن معظم النار من مستصغر الشرر.

علَّق البعض على الخطبة بأنها غضبة من الشيخ **عمر** لأخته التي طلقها **منصور**، وأسفًا على زوجته التي هجرته. لكن **عبد الرحيم التوم** -ربما مدفوعًا برغبته في إتمام الزواج- دعا إلى عقد اجتماع عاجل لمناقشة المشكلة.

الاجتماع، الذي عُقِد في أمسية يوم الجمعة نفسه، كان حدثًا غير مسبوق في تاريخ القرية. فيما بعد سيُقسم **مصطفى** أنه لم يرَ كل أهل **كلّرو** مجتمعين في مكان واحد إلا ذلك اليوم في فناء النادي. الأهمية القصوى للاجتماع أسقطت كثيرًا من التحفظات والتقاليد المتبعة في أمثال هذه الاجتماعات. اختلاط الرجال والنساء الذي وصل إلى حد الامتزاج، والحوار الصريح،

وعدم تركز مقاليد الحديث لدى أشخاص بعينهم كما هي العادة، كانت أشياء تظهر لأول مرة باجتماعات قرية في الشمال. **منصور**، عندما يتذكر ذلك اليوم الرهيب، يقول: «الحق أن ذلك اليوم أكد على انقسام تاريخ **كلّرو** إلى مرحلتين؛ مرحلة **عرضو قاسي** ومرحلة ما بعد **عرضو قاسي**. منذ ذلك اليوم لم تعد نساؤنا كما كُنّ».

المشكلات، التي طُرِحت ذلك اليوم، واصطلح جماعة من شباب القرية ذوي الثقافة على تسميتها تحديات مرحلة ما بعد **عرضو**، كانت تتلخص في عزوف الشباب عن الزواج، وانخفاض نسبة المواليد إلى الصفر مع استمرار حالات الوفاة. أضف إلى ذلك التوتر والهياج المسيطرين على طباع الجميع. الشيخ **عمر** أضاف في كثير من الحرج: «وهجر النساء أزواجهن. وما في ذلك من تضييع لحقوق الزوج التي أمر الله بها ورسوله».

اقتراح حاج **إبراهيم سالينتود** بتجاهل الأمر ونسيانه لقي معارضةً شديدة. صرخت **فاطمة** بنت العمدة **أحمد** – وللمرة الأولى في حياتها تتحدث أمام جمع من الرجال: «لن تموت نساء قريتنا إرضاءً لنزواتكم. وفروا لنا دايةً وسيعود كل شيء إلى طبيعته».

ارتفعت الأصوات وساد التخبُّط في الآراء، وأوشك الاجتماع أن يفشل عندما طلبت **سمية** فرصةً للحديث.

اقتراح **سمية**، الذي ألقته بكثيرٍ من العقلانية والهدوء وهي تنظر إلى

عبد الرحيم التوم من طرف خفي، كان وجيهًا بما لا يُقاس بغيره من المقترحات. اقترحت **سمية** أن يسافر وفد من وجهاء القرية إلى المدينة.

«... هناك عليهم أن يقنعوا المسؤولين بمأساتنا. أخبروهم أن قريةً كاملة -مجهولةً لديهم- تُحتضَر لتوقف قانون الطبيعة فيها. قولوا لهم إن **كلّرو** تموت ببطء. كلما مات واحد هنا كان هذا طريقًا إلى نهاية القرية التي لم تعد تستطيع أن تسدَّ عجزها. الحل موجود لديهم، متوافر بكثرة. هذا الحل اسمه الطبيب».

الاقتراح، الذي لقي موافقةً كاسحة من الجميع، شُرِع في تنفيذه بأسرع مما تخيلت **سمية** وهي تلقيه. في لحظات من الصدق تصيبها تعترف: «لم أكن واثقةً عندما ذكرته أنه سيجد هذا القبول. ما دفعني إلى الكلام هو إحساسي بالعجز أمام المشكلة التي نواجهها وظلالها التي تلقيها على حياتي بصورةٍ خاصة».

الوفد، الذي تكوَّن على عجل برئاسة الحاج **إبراهيم سالينتود** وعضوية **مصطفى** و**منصور** و**عبد الرحيم** وآخرين، اجتمع مرتين في منزل **مصطفى** لصياغة مطلب القرية بصورةٍ مناسبة تقنع المسؤولين. الصياغة، التي تمَّت وعُرِضت في اجتماع موسع، لقيت قبولًا وموافقةً دون كثير مراجعة. أما **سمية** فاقترحت في هذا الاجتماع تكوين لجنة محلية للمتابعة والتسيير الداخلي يُناط بها «ترتيب أوضاع القرية استعدادًا لمواجهة متطلبات الطبيب الجديد».

ما كان يدركه كل فرد أن عملية استقدام طبيب مقيم في القرية تحتاج إلى كثير من الجهد والاستعداد والأموال. بشكلٍ مبدئي، اتفقوا على مبلغ يُجمَع من الأهالي لتقديمه شهريًّا إلى الطبيب في صورة بدلية من بدليات الجهد والمشقة للعمل خارج المدينة. بعد يومين من تكوين لجنة المتابعة المحلية وبدئها في جمع المال المطلوب والبحث عن منزل يليق بالطبيب، سافر الوفد المنتخب إلى المدينة.

عشرة أيام مرَّت على قرية **كلّرو** مليئةً بالنشاط والتحفز وكثير من الترقب. القرية، التي نسيت همومها التقليدية وغرقت في دوامة عمل اللجنة المحلية، فُوجِئت بعودة الوفد دون تنبيه أو إخطار.

العودة، التي حدثت في صمت يُغلِّفه الوجوم، أربكت الكل. الذين فُوجئوا بـ **مصطفى** يفتح دكانه صبيحة أحد الأيام تساءلوا عن هذه العودة الصامتة التي حدثت. وعندما ارتفع صوت الحاج **إبراهيم سالينتود** يؤذن لصلاة الظهر، سارع كثيرون إلى الجامع وفي ظنهم أن نتيجة الرحلة ستُعرَض بعد الصلاة. لكنهم قُوبلوا بالصمت التام والألم الظاهر على الحاج **إبراهيم**.

الأخبار تسربت بعد ذلك كعادة القرية التي لا تعرف الأسرار. طلب الوفد قُوبِل بالتجاهل الصريح. وكل محاولة لإقناع المسؤولين انتهت بلامبالاةٍ قاسية. أما عندما حملوا آمالهم إلى نائب الدائرة، الذي ساندوه في الانتخابات حتى تسبب ذلك في سوء علاقة القرية ببعض القرى المجاورة، فإنهم

لم يجدوا سوى البشارة بإقامة مصنع للطوب الحراري في القريب، «خلال عامين أو ثلاثة» كما قال لهم وهو يبتسم.

سمية قالت لرفيقاتها وهي تبكي: «المدينة رفضت أن تمدَّ يدها إلينا. ببساطةٍ قالوا إن المشكلة هي مشكلتنا وعلينا أن نحلها وحدنا».

الوفد، الذي سمَّاه المتندرون -في مرارة- وفد **سمية**، لم يعلق على ما حدث وقيل. ولسنواتٍ طويلة ظلَّ **مصطفى** يغضب كلما سُئِل عن تفاصيل رحلتهم تلك. أما **عبد الرحيم** فظلَّ يتعوذ من المدن وأهلها لفترةٍ ويظهر عليه الألم والمعاناة كلما اضطره أمر مهم للسفر إلى المدينة. ووجدها حاج **محمد الحسن** فرصةً ليحدث الشباب عن الحكومات في عهد الانجليز ومفتش المركز القادم من ضواحي **يوركشاير** الذي يحل مشكلات المواطنين قبل أن يحسوا بها.

توترت القرية بعد فشل رحلة الوفد. انطوى الجميع على أنفسهم، وخيَّمت سحابة من التوجس والإحباط على سماء المعاملات بين الأهالي.

سمية، التي بكت يوم عودة الوفد مدفوعةً بإحساسها الشخصي بالهزيمة ومعرفتها بما يعنيه الفشل من استمرار المشكلة التي تغرس تعقيداتها في صميم حياتها، لم تهدأ. حملت أفكارها وهواجسها إلى كثيرين. ناقشت، وجادلت، وبكت. أخيرًا، وبعد أيام من العناء، كان لديها ما يمكن اعتباره حلًّا حملته إلى حاج **إبراهيم سالينتود**. نقاش طويل دار بينهما انتهى لصالحها. بصورةٍ

سرية –قدر ما تحتمل القرية– بدأ النقاش مرةً أخرى. رفض **منصور** الفكرة مدفوعًا بكبريائه ورغبةً منه في إبداء نوع من التميُّز بالممانعة. الحقيقة أنه لو شكَّ أن معارضته كانت ستُفشل الوفد الجديد فإنه ما كان ليبديها قط.

بعد يوم واحد سافر الوفد الجديد إلى الخرطوم. هدف الرحلة، الذي تسرب كالعادة ليصبح سرًّا بين الجميع يتواطؤون بذكره همسًا، جعل شيئًا من الراحة يغمر النفوس.

الحل، الذي اعتبره الجميع صائبًا، بل لاموا أنفسهم على عدم التفكير فيه منذ البداية، كان البحث عن **عرضو قاسي**. الوفد، الذي تكوَّن من **فاطمة** بنت العمدة **أحمد** و**سمية** و**قنديل الفريق** وأخريات، كان يحمل المشكلة هذه المرة لعرضها على الداية **عرضو قاسي** بنت **كايداهم**، مع دعوة حارة ومطلب وحيد.. وهو عودتها إلى القرية.

* * *

حِلّة ود أزرق

مرت حِلّة ود **أزرق** بعدة أطوار قبل أن يتكامل استواؤها كأحد حلال قرية **حجر نارتي**. يمكن القول إنها نبتت رويدًا كلحية مراهق. فما انبثقت فجأةً ولا ابتنتها الخطط، بل جاءت عفوية، تكتسب رسوخها كمشي الظلال ساعة العصر. وما بين أول قطعة من الطين وضعها **أحمد ود أزرق** وحتى وصلت مياه الصهريج الى حيث لم يحلم أحد، لم تهتم الحلة بالركض والعجلة لقطع المسافة بين الطفيلية وحق الوجود، لكنها أحسنت إدارة الفرص واستغلال الحوادث.

كان يومًا صيفيًّا قائظًا تفحُّ سمومه حين وصل **أحمد ود أزرق** بأسرته إلى **حجر نارتي**. في ذلك الزمان لم تكن أحياء قرية **حجر نارتي** تتجاوز الثلاثة: حلة الجامع وحلة أولاد **مصطفى** وحلة **فوق**. لم يكن وفود **أحمد**

ود أزرق غريبًا ولا لافتًا للانتباه. أسرة صغيرة عمادها الأعرابي النحيل بلون القمح المصطلى بشمس البادية، ينوء بشاربٍ كثّ، وزوجة عجفاء تبدو كثوبٍ مهترئ قدمًا، تجر خلفها طفلين كجحشين أجربين.

خلف أحد المنازل، أناخ ناقته وشتت قليل رحاله الرثة.

نحيلةً تلوَّت زوجته بين فقير حاجياتهم وطفليها العاريين. وبينما كانت تمارس عريق خدمة زوجة أعرابية، دلف **أحمد ود أزرق** إلى القرية يطلب الرزق. عرض نفسه أمام الدكان، لكن الجالسين كانوا مليئين بسخط الصيف. دخلوا به متاهات الاستجواب وتفحصوا أجوبته بحذر. تأملوا نحوله واستنطقوا عينيه الميتتين كالصحاري التي منها جاء. وحين طمأن ريبتهم، حاولوا استرداد اهتمامهم وجلين من أن يقع بهم على وعد بعملٍ في أيام صيفية قاحلة. إلا أن ود **أزرق** ما استفاد من كثير ترحاله ومخالطة أهل القرى سوى الإلحاح؛ فقذف نفسه في صوامع تحفُّظهم يستجديهم ويغريهم. وأكثر من التوسل اللحوح حتى أحسُّوه ذبابةً لزجة تتخبط في عرق وجوههم.

راغبًا في إنهاء الإلحاح اللزج، قال الشيخ **عبد العال**:

- أعطيك تمراتٍ تلقحهن.

لكن ود **أزرق** أظهر جهله باللقاح.

فانبرى له **عبد البين** -وكان عبدًا استحق شرف مجالسة السادة منذ زمن- قائلًا:

– إن شئت كنت عوني في حفر بئر العمدة.

لكن ود **أزرق** أشرع حكمته للجالسين:

– يا وجوه الخير! رزقًا جاوز ظاهر الأرض إلى أعلى أو إلى أسفل لا أطلبه.

ضحكوا منه، ثم قبل الشيخ **عبد العال** أن ينقل له **أحمد ود أزرق** جذوع نخل يريده سقفًا للغرفة الجديدة في بيته بناقته.

هكذا، عندما خارت الناقة وهي تنهض بحملها صوب منزل الشيخ **عبد العال البدري**، كانت القرية قد قبلت **أحمد ود أزرق** كأحد معالمها. لسنواتٍ ظلَّ يمارس هذا العمل بناقته التي قدم بها أولًا، ثم بأخرى اشتراها بعد أن نفقت الأولى. وظلَّ العراء خلف منزل حاج **حمد ناصر** منزله شتاءً وصيفًا. أما إذا دهمته أمطار مفاجئة كعهد الشمال بها فكان يأوي إلى عريش حاج **حمد ناصر** يتقي به دفق الماء الشحيح؛ فيلوذ وزوجته وابناه يرقبون المطر وجلين، مسبحًا الله عند كل برق، راجفًا مع كل رعد.

تعاقبت السنوات وكرت. شبَّ **مهدي** و**الخير** ابنا **أحمد ود أزرق**، وخلفهما في الطفولة شقيقهما **عبد العال**، الذي سُمِّي تيمنًا بالشيخ الذي رحل فجأةً ظهيرة عيد فطر. وجاءت ولادته صامتةً بلا اهتمام، ولم يعلم

به أحد في القرية إلا بعد شهور. وفي يوم وضعه ذاته، عاودت أمه عملها في ضفر السعف وصناعة السلال والأطباق. وكأخويه، ضمه العراء ببراحه أول الأمر، لكنه ما كاد يتقن مشي الطفولة المعوج حتى نبتت حوله جدران القش صانعةً غرفةً كانت هي البناء الأول في ما قُدِّر له أن يكون حلة **ود أزرق** بعد سنوات. ولحق **مهدي** والخير بأبيهما في الخدمة؛ فتفرقا في القرية يطلبان الرزق معه. وانطبعا بطابع القرية التي شبَّا فيها، فلم يخشيا لقاح التمر ولا حفر الآبار، فجلبا الرزق من سطح الأرض وباطنها. واعتادا أكل الطبيخ في البيوت، فلم يسبب لهما *الطميمة* كما كان **أحمد ود أزرق** يشكو مكتفيًا بأكل الزيت.

واجه **مهدي** أولى مشكلات الوجود في القرية حين اشتد عوده وصار أشبه بعود نخلة جيدة الري منه بالجحش الأجرب الذي قدم به والداه. كان بحكم خدمته في بعض البيوت يدخلها ساعة شاء طلبًا لأية خدمة يقضيها؛ فانكشفت عليه النساء واطلع عليهن، واخترقته **حريرة** بنت **حمد ناصر** بشكلٍ خاص. الفتاة التي كانت من أجمل بنات القرية. تضج بجسدٍ أسمر مكتنز، يلهو عليه صدر رجراج، كثمرة برتقال ناضجة على فرع لعوب تهزه الريح. يلج **مهدي** بيتهم عصرًا فيلفيها خارجةً من الحمام تُلمِّع ذؤابتيها ببقايا الماء وهي تغنج في الفناء مغنية. يشتعل الفتى في ذاته ولا يخبو، وفي عروقه الشابة تتمطى الرغبات المحالة. أدمن بيت حاج

حمد ناصر واصطنع الفرص للعبور به كل حين طالبًا الرؤية السعيدة. ويوم تزوجت **حريرة** سافر **مهدي**. غاب أشهرًا ثم عاد إلى القرية يسوق خلفه صبيةً من بنات عمومته تزوجها في الخلاء.

قبلت القرية الوافدة الجديدة كحال الأسرة التي سبقتها. ولم يؤثر وجودها إلا بقيام غرفة جديدة من القش على يمين الغرفة الأولى. ولم تعلم القرية بهذا الزواج إلا مصادفة. ولم تلبث **بخيتة** -العروس- أن صارت مصدر رزق جديدًا للأسرة، وقناةً إضافية للتواصل مع القرية؛ فسرت في المكان تغسل الثياب وتعاون النسوة في شؤون البيوت.

بعد أشهر سبعة قدمت **أم بلينا** على الأسرة.

أم بلينا قريبة لـ **بخيتة** من جهة أمها. قيل إنها فضحت أسرتها، وأظهرت عيوبًا لا يمكن السكوت عنها؛ فقرِّر أهلها إخفاءها بعيدًا. أرسلوها إلى عائلة ود **أزرق** في **حجر نارتي**. الضيفة، التي وصلت ظهر يوم خميسٍ قادمةً من سوق المدينة على ظهر عربة السوق، التي تحمل عددًا من المتسوقين، جذبت الانتباه إلى مسكن الأعرابي النحيل.

تناقل الشباب خبرها، ورووا نضارها وملاحتها. ثم ظهرت أمام الدكان تشتري للأسرة بعض حاجيات؛ فسبَّح الله أكثر من معجب، وأضمر السوء غير ما واحد.

خلال أسابيع تعشقها عدد من أبناء القرية، وبان في مشيتها فعلها، وظهر أثر أسرارها على ضحكتها وخائنات نظراتها.

فارت دماء **الخير**، وترصَّدها ليلًا؛ فدهمها مع أحد العشاق بجرميهما، فكال الضرب للعشيق حتى كاد يقتله. لكنه لم يمسَّها كعادة الأعراب. اكتفى بأن جرَّها إلى غرفة القش حيث كال لها السباب، ثم سلمها إلى والدته، التي طيبت خاطرها وانتزعت منها وعدًا بحسن السير والسلوك.

العاصفة لم تنتهِ تلك الليلة. تجمَّع أهل العاشق، الذي ناله من غضب **الخير** كثير أذًى، وأوعدوا ود **أزرق** شرًّا؛ إذ يعتدي ابنه الأعرابي على ابنهم ابن البلد!!

هُرِع ود **أزرق** إلى حاج **حمد ناصر** جاره يطلب عونه. وبعد كثير مفاوضات وتوعد، أُجبِر **الخير** على ترك القرية وذهب مبعدًا إلى الخلاء.

هدأت الأمور قليلًا وإن تركت الحادثة غضبًا مكتومًا في كل القرية تجاه ود **أزرق** وأسرته. وكثر الحديث عن الأعراب وغدرهم. وحمَّل غير واحد الأسرة كل الذنب بدءًا بالفتاة اللعوب، التي تؤويها حجرتا القش، انتهاءً بالاعتداء على أبناء البلد.

وقال أهل المعرفة إن الأعراب شؤم على كل قرية ينزلون بها.

لم تكفَّ الحادثة **أم بلينا** عن عشاقها ولا كفتهم عنها. وكان هؤلاء من أردأ أنواع العشاق وحثالة المحبين. شباب انتقلوا من مغازلة الجحوش

سرًّا في زرائب البيوت إلى جسد **أم بلينا** الذي لا يغتسل فيتجمع العرق فوقه بشرةً ثانية. ومضى طقس الذكورة بالمرور على **أم بلينا** -كمرحلةٍ وسطى بين الحمير والنساء- يرسخ كطقسٍ ثابت في حياة مراهقي القرية. وأدَّت به **أم بلينا** بعض خدمات للأسرة؛ فسددت بجسدها قيمة عدة حجارة بطارية عجز **مهدي** عن دفع ثمنها وعلبتي لبن وخمسة شرائط ريفو وربع رطل زيت سمسم، وأشياء أخرى متفرقات من الدكان.

ثم جاء فيضان النيل فجأةً فانتقل بالأسرة إلى طور جديد.

خسرت القرية زراعتها وتهدمت عدة بيوت وطرد الموج ود **أزرق** وأسرته من مستقرهم خلف منزل حاج **حمد ناصر**. لكن مروءة ود **أزرق** في إعانة المحتاجين ومساعدته في إجلاء البهائم من السواقي الزراعية قبيل الفيضان بساعاتٍ أكسبتاه شكرًا وتقديرًا.

نتيجةً لهذا الجهد وتقدير القرية له، اجترأ ود **أزرق** -بعد انحسار الفيضان وعودته بأسرته إلى مستقرهم خلف منزل حاج حمد ناصر- على بناء غرفة نصف حيطانها السفلية من الطين النيئ. كانت تلك خطوةً جبارة لم تكن لتحدث لولا أن ود **أزرق** استطاع إنقاذ بقرة شيخ القرية **ميرغني** وعِجلها من الفيضان. حين حمل **عبد البين** غضبه وذهب يشكو جراءة الأعرابي

إلى الشيخ **ميرغني**، وجد الشيخ مقيدًا بفضل ود **أزرق** حامدًا له. رغبةً منه في مكافأة الخدمة الجليلة التي قدمها ود **أرزق**، تجاهل الشيخ جرمه واجتراءه على البناء المستديم. ود **أزرق** لم يعلق على غضب الغاضبين إلا بقوله إنه لم يبنِ حائطًا، بل بنى نصف حائط أكمله بالقش حتى يأمن غائلة الماء وحشرات الأرض.

ما تخيل ود **أزرق** وهو يضع لبنة الطين الأولى أنه ينشئ حلةً جديدة في القرية المترنحة بضربة الفيضان القريب.

كانت للفيضان فوائد أخرى على الأسرة. **مهدي** كان يلقح التمر لعددٍ من المزارعين، وأدى الفيضان إلى نقص في المحصول وأضر بأصحاب الأراضي والتمور بغير ما وجه؛ فلجأ **عبد الشكور**، مدير مدرسة القرية الذي لا يجد للزراعة وقتًا، إلى مشاركة **مهدي** في عشر نخلات هربًا من مصروفات ريِّهن ونظافتهن. فقضت الشراكة لـ **مهدي** بنصف النخيل مقابل الرعاية والنظافة والري.

نشط **مهدي** في شراكته الجديدة، فأحسن إلى النخيل ونظفه وأجرى تحته الماء فوق الحاجة. ولفت نشاطه انتباه عدد من ملاك الأراضي، الذين قعدوا عن زراعة أراضيهم، فسلموها إليه قاصدين خير نشاطه وغيظ المزارعين الآخرين من أبناء القرية. **مهدي** كان يقبل الشراكات بكل شكل تُعرَض به؛ فلم يحرص على منازعة ولا مساومة، بل عدَّ مشاركته وحدها مكسبًا. قبل مرور عامين على الفيضان، كان **مهدي** قد شارك في سبعة وستين عود

نخيل، ودانت له أربعة فدادين وخمسة عشر حوضًا يزرعها.

تخوَّف البعض من هذه الشراكات، لكن أهل المعرفة أكدوا أن الأعراب كسالى ولا يملكون الطموح الذي يبرر المخاوف.

لم تغير الجذور الممتدة في القرية طبيعة **مهدي**، لكنها فتنت **الخير** بعد عودته.

عاد **الخير** عصر يوم شتوي مكفهر. قصد منزل الشيخ **ميرغني** قبل منزلهم. ملأ أزيار المياه ورشَّ المجلس الدائم للشيخ ووضع الكراسي مكانها. أُعجِب كبار البلدة بنشاطه فطلبوا العفو عنه من الساخطين عليه. وبعد صلاة العشاء، حين دخل **الخير** حجرة والديه ذات النصف الطيني، كان نال عفوًا عزيزًا.

شارك **الخير** **مهدي** في الزراعة وأعانه فيها. لكنه على عكس أخيه ووالده أُعجِب بالعلاقات الجديدة التي وفرتها الشراكات لأسرته. كان **مهدي** يحرص يوم الحساب على زيارة الشريك في منزله فيجلس جلسة مزجر الكلب، متأدبًا منزلًا نفسه منزلة أسير الفضل، ويتمم الحساب بكثير خنوع حتى يبدو الأمر كما لو كان لصاحب الأرض فضل عليه. لكن **الخير** غيَّر كل هذا. كان يحرص على الذهاب للحساب عند المغرب، فيجلس على كرسي مقابل لصاحب الأرض، يشرب معه الشاي ويحاوره طويلًا في شؤون القرية ومشكلاتها، ثم يبدأ الحساب بذكر المنصرفات

مهولًا لها حتى يقع في روع المالك أنه خارج من الموسم بلا ربح. وبعد أن يضخم الخير عمله ومقدار ما صرفه، يبدأ في تسكين قلب مستمعه رويدًا بالأرباح.

الخير يحب رؤية وجه مالك الأرض وهو يربد ويكفهر تخوفًا مع ضخامة المنصرف الذي يسمع. ويرقب تحوله رويدًا إلى الارتياح ثم التسليم التام، ونظرة الامتنان التي تبدو عليه بعد أن يعرف بالدخل الذي اكتسبه. هكذا كان الخير يغادر منزل الشريك مُشيَّعًا بالفضل والثناء، ويترك خلفه رهبةً لا تنقضي بيسر.

أسلوب الأخوين جعل لهما مكانةً خاصة في القرية ووطَّن لهما في كثير من القلوب.

لكن الحدث الأكبر كان ما فعله الخير في أحد مواسم التمر.

في ذلك الموسم، جلب الخير جماعاتٍ من أهله من الخلاء ليقوموا هم بلقيط التمر. تلك العملية التي كان يتكفل بها فقراء القرية وبعض أسر المزارعين وبقايا العبيد وشراذم الأعراب الذين يفدون بلا تنسيق، استولى عليها الخير.

جلب مجموعةً من أبناء عمومتهم جاوزوا الثلاثين عددًا، انتشروا كجرادٍ صحراوي في كل القرية. عمل الوافدون بإخلاصٍ ما له مثيل، وطالبوا بأجورٍ أرخص من غيرهم بما لا يُقارَن. فعلى حين جرت العادة

أن يتقاضى عمال اللقيط أجرهم على الجوال، ارتضى الوافدون أن يأخذوا أجورهم باليومية، وارتضوا ليوميتهم سعرًا رخيصًا جعل أصحاب التمور يوفرون ما يقارب نصف ما اعتادوا إنفاقه في الموسم.

حقيقة أن الخير حصل من كل عامل من الوافدين على نصف أجرته لم تزعج أحدًا. لكن ما لفت الانتباه هو عدم رحيل كل الذين قدموا. فبعد انقضاء الموسم بقي نحو عشرة رجال من أولئك الوافدين، وعُرِف أن أحدهم تزوج **أم بلينا**.

الذين بقوا أقاموا بكل جراءة غرفًا من القش حول غرفتي ود **أزرق** وابنيه. وتندر الناس في الدكان مساءً عن هذه الطفرة، لكنهم لم يكثروا الحديث عنها. قبلوها على علاتها. وقال أهل المعرفة إن هذا كان يحدث قديمًا في عدد من القرى كل فترة، ثم يحمل الأعراب قشَّهم وبهائمهم ويرحلون ملبِّين نداء الصحراء التي لا يطيقون عنها بعدًا.

متى لحقت النساء ببعولتهن؟ لم يلحظ أحد القدوم. لكن النسوة انتشرن فجأةً في بيوت القرية، وصار لكل وافدة زبائن للغسيل والخدمة.

وبعد ناقة ود **أزرق** الوحيدة، أصبح هناك ثلاث نوق وجملان يعملون على نقل الحاجيات في القرية.

الهجرة الكبرى كانت بعد عام الجفاف، وكانت أكبر مما يمكن تجاوزه.

حدث ذلك في عام كفَّت فيه السماء وغار النيل حتى صار مدعاةً للرثاء

في نحول ارتمائه وسط المجرى العريض. نقلت اللواري السفرية أخبار المجاعة التي أمسكت بأطراف البلاد. الشح والندرة والجراد الصحراوي، الذي يهاجر في جماعات ضخمة تخفي عين الشمس عن الناظرين، جعلوا العام رمادةً أخرى.

في هذا العام، وفد الأعراب من أبناء عمومة **أحمد ود أزرق** بالعشرات. لم يفدوا وحدانًا بل أسرًا بكاملها.

حلُّوا جميعًا حول غرف ود **أزرق** ومن سبقوهم.

ما استطاع شيخ القرية **ميرغني** تجاوز هذه الهجرة كما تجاوز ما سبقها.

زار –وفي صحبته **عبد البين** وآخرون– معسكر النازحين الجدد. راعته قذارتهم والمخاط الجاف تحت أنوف أطفالهم. وحين رأى نساءهم تعجب من نحولهن والعطن المنتشر فوق ثيابهن.

الأسر، التي انتشرت غرب منزل حاج **حمد ناصر**، بدت للشيخ **ميرغني** كطفحٍ جلدي مؤذٍ؛ فقرَّر أن يُخلِّص القرية منه ولو اضطُرَّ إلى علاج الكي.

كيف استطاع أولئك الأعراب التفاوض مع الشيخ **ميرغني** وإقناعه بأن يبقوا هناك؟

لا أحد يدري بدقة. تحدث البعض عن خدمات بُذِلت للشيخ **ميرغني** أرضت ذوقه الرخيص في النساء. وأشاع البعض أن الشيخ الضعيف النفس

قبل رشوةً متمثلة في نصف ما يجنيه الأعراب من عملهم.

لم يُحسَم الأمر تمامًا، ولم يصدق أحد ما قاله الشيخ **ميرغني** عن أنه رقَّ لحال الأعراب بعدما جلس إليهم ورأى فقرهم وسوء ما يعانون.

لكن أهل المعرفة قالوا إن هذا من حسن حظ القرية؛ إذ توافرت فيها الأيدي العاملة الرخيصة بمقدم الأعراب.

ثم جاءت القفزة الكبرى في عام الانتخابات.

أثبت **الخير** ذكاءً لم يسبقه إليه أبناء القرية الأصليون.

الحكومة رشحت في الدائرة الريفية أحد أتباعها. رجلًا حاز رضاها لخدماتٍ أمنية سابقة قدمها أضرت بعددٍ من أبناء المنطقة وأوردتهم سجونًا ومعتقلاتٍ تطاول زمانها. وكان في مواجهته أحد أبناء المنطقة الصميمين من قدامى الزعماء المنتمين إلى حزب عجوز له رصيد من الولاء الصوفي المحبب للأهالي.

مع أن جل أبناء **حجر نارتي** أعضاء في حزب الحكومة لضرورة توفير مصالح القرية وملء فراغات الحكم المحلي، إلا أنهم لم يستطيعوا الخروج على الولاءات القديمة، فأبدوا التأييد لمرشح الحزب العجوز معارضين ترشيح قتَّات الدولة.

انزعجت دوائر الحكومة في المدينة الريفية القريبة وهي ترى مرشحها يتهاوى أمام ولاء القرويين لشيوخهم وحزبهم الموؤود منذ عقدين من الزمان. وبدت النهاية وشيكةً بشرٍّ ختام ممكن، حتى رأوا رأي العين وفود العاصمة تأتيهم بالمسؤولين موبخين ولائمين فشلهم في حمل مرشحهم إلى البرلمان رغم الميزانيات المبذولة.

وحين استحكمت حلقات الخسارة حتى فكر البعض في إلغاء الانتخابات، ورد عليهم **الخير** مبشرًا.

جاءهم من أقصى الريفي يسعى بمكره الأعرابي الفطري يحمل حلًّا سلسًا يُفرِّج كرب المهمومين ويحفظ عليهم مرشحهم وما ادخروه من أموال الحملة الانتخابية لصدِّ غائلات الزمن عنهم.

الخير بن أحمد ود أزرق العربي اقترح على سادة المدينة الجالسين في مكاتبهم أن يقوموا بتسجيل أقاربه الأعراب كمواطنين في الدائرة الانتخابية لمواجهة النقص الذي يحتاج إليه مرشح الحكومة. ومقابل الحصول على مبلغ من المال لكل فرد، يضمن **الخير** أن يدلي الأعراب بأصواتهم حيث يُشار عليهم.

في يوم التصويت، وقد كاد المرشح المنافس يذبح ثورًا أمام مركز التصويت احتفالًا بفوزه، الذي بدا قاب ختم صندوق أو اثنين، ظهر **الخير** يقود مئات الأعراب خلفه ليقلب ميزان الدائرة الانتخابية رأسًا على عقب.

العربان، الذين لا يحسنون القراءة والكتابة ولا يحمل أحدهم أوراقًا ثبوتية ولا يعرف جلهم من هو الرئيس الحالي للبلاد، ظهروا مكبرين مهللين يحملون لافتاتٍ قماشية عريضة كُتِب عليها الشتم لأمريكا والوعيد لها بسوء العاقبة وتؤيد المشروع الإسلامي ومرشحه.

اللافتات كُتِب عليها في فخر وصبر نافذ:

قرية حجر نارتي تحذر أمريكا للمرة الثانية والأخيرة.

مليون شهيد فداء للتوحيد (وإن كان الخطاط الذي كتب اللافتة قد كتبها: مليون شهيد فدى للتوحيد).

الإسلام سوف يسود.

كبَّر أنصار حزب الحكومة وهللوا للجند الذين أمدهم بهم المكر وخزائن الأرض، وعدُّوهم -رغم احتقارهم للأعراب- مددًا من الله وجندًا من عنده، نصر الله بهم الحق والمصطفين من عباده.

غزوة الانتخابات هذه ملأت خزائن الخير بمالٍ وفير، بعضه ما ناصف به الأعراب في رشاويهم، وبعضه حلال ما نفحه إياه سادة المدينة شكرًا وعرفانًا على حسن إيمانه وصدق نصرته. كما أورثته -الغزوة- بطاقة عضوية في أمانة الشباب بالحزب الحاكم، صار يبرزها مفاخرًا كلما جلس في جماعة. وافتنَّ كثيرًا في ترديد أخبار زياراته للمحافظ ولقائه بالوالي في سفريات منظمة يرسلها الحزب الحاكم إلى عاصمة الولاية كل فترة

لتأكيد ولاء جماهير الشعب وتلقي التوجيهات لمواجهة تحديات المرحلة القادمة التي لا تنفك تتكرر.

هل كان ممكنًا بعد ذلك أن يعترض شيخ القرية **ميرغني** حين شرع زميله في الحزب **الخير بن أحمد ود أزرق** العربي في بناء غرفته الجديدة بالطوب المحروق وألحق بها ديوانًا واسعًا يستقبل فيه أضيافه المتوقعين؟

قال أهل المعرفة إن الدولة تحاول إحلال الأعراب مكان أبناء البلد لكنها لن تنجح.

النصر، الذي حققه **الخير** بغرفته، أغرى كثيرًا من أقاربه أن يشرعوا في بناء غرفهم من طين اللبن، وجرؤ بعضهم على أن يسقف غرفته بسقفٍ مستديم من جذوع النخل، تمامًا كبيوت أبناء القرية.

خلال أشهر أربعة، كانت الغرف الطينية قد استقرت وأخذت اسم حلة العرب، كاعترافٍ منتزع على مضض من أهالي **حجر نارتي**. وقد حمد الأهالي -رغمًا عنهم- للأعراب أنهم اكتفوا ببناء غرف ولم يقيموا بيوتًا كاملة بأسوارٍ حول الفناء. لكن ذلك لم يدم طويلًا.

فقد ظهرت أسوار الحيشان مع اسم الحلة الجديد.. حلة **ود أزرق**. وكان ذلك نتيجةً لبزوغ نجم **حمد** العربي.

حمد العربي، الذي قدم إلى القرية في خضم هجرة الجفاف، كان قد سبق له العمل في قهوة سفرية على الطريق إلى **أم درمان**، وله خبرة تجارية في تعاملات الدكاكين والبيع والشراء. وقد نال من عمله في لقيط التمر ودوره في غزوة التصويت مبلغًا من المال جعله لبنةً لشراكة مع عدد من أقاربه ليبني غرفةً على طرف حلة العرب ويغرس على حيطانها رفوفًا ويعلق خارجها لافتةً كتب عليها بخطٍّ متعرج: بقالة السعادة.

الدكان الجديد عدَّه الأعراب قضية هوية بالنسبة إليهم؛ فقاوموا كل محاولات إغلاقه، وتعصبوا لقريبهم، وحرَّموا على نسائهم أن يشترين من دكاكين «الدناقلة» – كما يطلقون على أبناء **حجر نارتي** الأصليين. وأمام الدكان، وضع **حمد** العربي ثلاثة سرائر منخفضة تصلح للجلوس عصرًا لتبادل الأخبار والمؤانسة، واقتنى جهاز تسجيل ألقمه أحدث شرائط أغاني الطمبور ليجذب أكبر عدد من الزبائن.

وحين أصبح **الخير** يتأخر عن زيارة شركاء الأرض لتقفيل الحسابات معهم، اضطُرَّ السادة القدامى إلى التنازل عن علياء فقرهم وقصدوا حلة العرب ليحصلوا على نصيبهم من الشريك الماكر. ولما كان **الخير** يفضل الجلوس عصرًا أمام دكان **حمد** العربي؛ فقد اضطُرَّ الدناقلة إلى أن يشاركوه مجلسه ذاك. وبعد تكرار الجلوس أخذوا يلاحظون توافر سلع صغيرة تحتاج إليها منازلهم لكنهم لم يتذكروا شراءها من دكاكين القرية الأقرب. ولم يدُر بخلد أحدهم أن الأعراب، الذين يطلعون على خبايا بيوتهم

بخدمتهم فيها، كانوا يسارعون ليخبروا **حمد** العربي بما يحتاج إليه كل بيت؛ فيسرع بوضعه في مكان بارز كلما زاره أحد أبناء القرية القدامى.

هكذا وجد الدناقلة أنفسهم ينخرطون في ديون صغيرة لدكان **حمد** العربي، أجبرت بعضهم على نقل تعاملاته كلها إليه لتفادي البلبلة وتعدد الدائنين.

وفود أبناء القرية المتكرر إلى حلة العرب تسبب في أمرين. الأول أنهم عادوا من حلة العرب يحملون اسمها الجديد الذي كان العرب يرددونه أمامهم.. حلة **ود أزرق**. في البداية حاولوا أن يتغابوا عن الاسم الجديد والتواطؤ على اسم حلة العرب، لكنهم لم يصمدوا كثيرًا أمام حيل الأعراب التي كانوا يرددون بها الاسم الجديد على مسامعهم، ويظهرون جهلهم التام بأي مكان في القرية يُسمَّى حلة العرب.

ومع أن الشيخ ود **أزرق**، الذي أحنته السنون وقيدته حبائل الأيام، أعلن أكثر من مرة رفضه لهذا الاسم، إلا أنه تمتع بمجالسة السادة القدامى على سرير خشبي مهترئ أمام دكان **حمد** أكثر من مرة حتى بدأ يحسُّ قبولًا للاسم الجديد والوضع الموقر الذي أنزله إياه الأعراب.

الأمر الآخر كان إقدام عدد من الأعراب على بناء أسوار لغرفهم اليتيمة بحجة حماية نسائهم من أعين الغرباء من رواد الدكان. وقد استفاد الجميع من هذه الحجة، حتى **الطاهر** العربي، الذي يسكن الطرف

الآخر من الحلة ولا تطل على غرفته إلا زريبة مواشي يرعاها مناصفةً لـ **عبد البين** وأشجار النخيل البعيدة. لكنه -مع ذلك- شرع في بناء سور طيني حول غرفته لم يكمله، فاكتفى بما شرع به منه.

سبعة عشر عامًا مرت منذ قدم الشيخ **أحمد ود أزرق** الأعرابي بزوجته.

تكاثر فيها الأعراب وامتد نفوذهم ووجودهم وعلائقهم. لكن القرية أصرت على اعتبارهم مجرد زائدة دودية لا سبيل إلى اجتثاثها، لكن الخير في قبولها نوعًا. وقد عدُّوا أن الحلة موجودةً وغير موجودة؛ فسكانها ليسوا معنيين بمشكلات القرية وتقرير مصيرها، إنما القرار عند أبناء القرية القدامى، ويتلقى الأعراب نتائج هذه القرارات بالتسليم ويتكيفون معها ويستفيدون منها ما استطاعوا.

لكن، حين توقف صهريج القرية وبدأت حملة جمع التبرعات لشراء مولد المياه الجديد وصيانة شبكة المواسير، ظهر خطأ هذا الظن.

حملة التبرعات الضخمة، التي عمَّت القرية وأبناءها في العاصمة ودول الاغتراب والمهجر، لم تكفِ كل المبلغ الذي طلبته الحكومة للقيام بأعمال الصيانة ولبيعهم مولدًا كهربائيًّا جديدًا لرفع المياه إلى الصهريج من جملة المولدات التي حصلت الحكومة عليها في شكل إعانة من دول أوروبية لم يسمع بها سكان **حجر نارتي**.

النقص في المبلغ لم يكن كبيرًا. كان يمكن للقرية أن تسده فقط لو توافر

لها الوقت. لكن المهندس المسؤول أخبرهم أن الزمن ليس في صالحهم، فإن لم يسددوا المبلغ فورًا فإن المتبقي من حصة المنطقة سيُحوَّل إلى غرب البلاد لحاجة الناس هناك إلى الماء أيضًا.

حاول أبناء القرية التوسل بالوساطات واللجوء إلى أصحاب النفوذ، لكن ذلك لم ينتج عنه إلا نفاد الوقت المتبقي. اخترمت الحسرة القرية كلها لعجزها وقد أوشكوا على الحصول على الصهريج بعد حرمان دام عامًا ونصفًا.

هل كانت فكرة **أحمد ود أزرق** أم هي فكرة ابنه الماكر **الخير**؟

لا أحد يعلم بدقة؛ فالذين جاؤوا يحملون الاقتراح كانوا **أحمد ود أرزق** وابنه **مهدي** بعلاقاتهم الحسنة في القرية.

لم تصدق القرية أن هذا العرض جاء من عند الأعرابي القنوع، لكنها لم تجد دليلًا واضحًا على تورط **الخير**، خصوصًا عندما أظهر معارضة الفكرة وقال إنها إهدار لمال الأعراب لصالح الدناقلة.

أحمد ود أزرق اقترح أن يسهم الأعراب في مبلغ الربط المطلوب للقرية ويدفعوا فوق ذلك ثمن خط مياه جديد يُمَدُّ إلى منازلهم من الصهريج أسوةً بحلال القرية الأخرى.

حقَّ الوجود للأعراب مقابل العطش. خيار صعب اضطُرَّت القرية إلى أن تنهزم أمامه مع قسوته عليها.

وكان مذلًّا جدًّا أن تتوسل القرية **الخير** حين وقف أمام الدكان يعلن رفضه لهذه المشاركة بحجةٍ منطقية جدًّا هي أن الأعراب لا يستهلكون مياهًا بقدرٍ يجعلهم يحتاجون إلى خط يصل إلى منازلهم؛ فحميرهم ونساؤهم وصبيانهم ينقلون المياه بكفاءةٍ من ماسورة الصهريج ومن البحر والآبار إلى الحلة في منظومة اجتماعية متناسقة لا تحتاج إلى اختلال بوصول المياه إلى المنازل، لتزيد أعباء المال على الأعراب، وتمنح النسوة والصبية أوقات فراغ لا يدري أحد فيما يستخدمونها.

توسلت القرية **الخير** ألَّا يعارض كي تنعم كل القرية بنعمة الماء. وافتنَّ عدد من أهالي **حجر نارتي** في تذكيره بالأخوة والتاريخ المشترك لكل القرية بكل حلالها المتحابة والمتوادة.

بعد كثير توسل ورجاء، قبل **الخير** تلك المشاركة غاضبًا مغمغمًا بأنها خدعة من الدناقلة لأهله الأعراب المساكين. وحين أعلن هذه الموافقة، زغردت النساء وهلل الرجال. وبسرعةٍ -أقرب إلى تواطئ الإعداد المسبق- سلَّم الأعراب المال للجنة التبرعات.

دخلت المياه بيوت حلة ود **أزرق**.

واستحقت الحلة أن تكون من حلال القرية على قدم المساواة مع حلة الجامع وحلة فوق وحلة أولاد **مصطفى**. وقبلتها القرية وقد تناست كل

مخاوفها القديمة. وقبل **عبد الشكور** تسجيل أبناء الأعراب في المدرسة لينشغلوا بالدراسة بدلًا من الوقت الذي أصبح فارغًا بسبب توافر المياه في البيوت.

نعم، ما زال هناك من يسألون في قلق: هل يأتي يوم يتجرأ الأعراب فيه على طلب بناتهم للزواج؟ لكن أهل المعرفة من الدناقلة يؤكدون أن هذا مستبعد جدًّا.

* * *

شكر وتقدير

من الواجب أن أتقدم بالشكر لكل من أعانوني في كتابة هذه المجموعة القصصية، بدعم وإطلاع ورأي ومراجعة ونقاش.
الصديقة **مها البدري**، والصديقة **أسماء إسماعيل**.
وللصديقة **هدى شفيق** شكر خاص على ما بذلته من عون وتشجيع.
والأستاذ **أحمد مدره** على مراجعته اللغوية وتدقيقه.
والصديق المخرج **أمجد أبو العلاء** لتوفيره صورة الغلاف.
لهم أتقدم بوافر الشكر، والعجز عن وفاء الأيدي التي أولوني إياها.

حمور زيادة

المحتويات

1ـ النوم عند قدمي الجبل 7

2ـ حكاية حُسنة بنت قنديل، وما جرى بسببها 59

3ـ لكل عام خريف 125

4ـ عندما هاجرت الداية 133

5ـ حِلّة ود أزرق 153

صدر للمؤلف:

1 - **سيرة أم درمانية** – مجموعة قصصية
دار الأحمدي للنشر – القاهرة 2008
2 - **الكونج** – رواية
دار ميريت للنشر- القاهرة 2010
دار العين للنشر – القاهرة 2015
3 - **شوق الدرويش** – رواية
دار العين للنشر – القاهرة 2014
* جائزة نجيب محفوظ للأدب 2014
* القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية 2015
4 - **النوم عند قدمي الجبل** – مجموعة قصصية
دار ميريت للنشر – القاهرة 2014
دار مداد للنشر والتوزيع – دبي 2016
5 - **الغرق**- حكايات القهر والونس – رواية
دار العين للنشر – القاهرة 2018

النــوم عند قدمي الجبل قصة فيلم «ستموت في العشرين» سيناريو وحوار أمجد أبو العلاء ويوسف إبراهيم. إخراج أمجد أبو العلاء.

حصل الفيلم على جائزة أسد المستقبل من مهرجان فينسيا 76.

وحصل على جائزة أفضــل فيلم إفريقي مؤثــر في فينسيا 76.